التفسير الاجمالي

المحاضرة الأولى

فضل القرآن الكريم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

مقدمة : فضل القرآن الكريم : -

إن القرآن الكريم هو حبل الله المتين وهو النور المبين والصّراط المستقيم عصمة لمن تمسّك به ونجاة لمن اتبعه : - (كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير) (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبّار قسمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وقد تكفل الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضّل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة فقال تعالى : - (فإمّا يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحث على الاجتماع على قراءة القرآن ومدارسته فكان صلى الله عليه وسلم يقول : - " وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله تعالى ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده " والمراد بمدارسة القرآن الكريم : - بيان معانيه واستنباط أحكامه ودقائقه التي فيه ولا يتم ذلك إلا عن طريق التفسير .

فضل التفسير وأهميته وحاجة المسلمين إليه : -

إن التفسير : - هو مفتاح كنوز وذخائر القرآن الكريم الذي أنزله الله تبارك وتعالى لإصلاح البشر وانقاذ الناس واعزاز العالم ، وبدون التفسير لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن الكريم وتوافروا على قراءته كل يوم ألف مرة بجميع وجوهه التي نزل عليها ، وهنا نلمح السر في تأخر مسلمة هذا الزمن على رغم وفرة المصاحف في أيديهم ووجود ملايين الحفاظ بين ظهرانهم وعلى رغم كثرة عددهم واتساع بلادهم في حين أن سلفنا الصالح نجحوا بهذا القران نجاحا مدهشا كان وما زال موضع إعجاب التاريخ والمؤرخين مع أن أسلافنا أولئك كانوا في قلة من العدد وضيق من الأرض وخشونة من العيش ومع أن نسخ القرآن ومصاحفه لم تكن ميسورة لهم ومع أن حفاظه لم يكونوا بهذه الكثرة الغامرة ، أجل ، إن السر في ذلك هو أنهم توفروا على دراسة القرآن واستخراج كنوز هداياته يستعينون على هذه الثقافة العليا بمواهبهم الفطرية وملكاتهم السليمة العربية من ناحية وبما يشرح رسول الله صلى الله عليه و سلم ويبينه لهم بأقواله وأعماله وأخلاقه وسائر أحواله كما قال الله سبحانه وتعالى له : - (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكرون) وعلى ذلك كان همهم الأول هو القرآن الكريم يحفظونه ويفهمونه قبل أن يحفظوه ثم يعملون بتعاليمه بدقة ويهتدون بهديه في يقظة ، بهذا وحده صفت أرواحهم وطهرت نفوسهم وعظمت آثارهم لأن الروح

الانساني : – هو أقوى شيء في هذا الوجود فمتى صفى وتهذب وحسن توجيهه وتأدب أتى بالعجب العجاب والله عنده حسن الثواب .

وكذلك أتت الأمة العربية بالعجب العجاب في الهداية والارشاد وانقاذ العالم واصلاح البشر وكتب الله لهم النصر والتأييد والدولة والظفر حتى على أقوى الدول المعادية لدعوة الحق والاصلاح في ذلك العهد دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب ، تلك محوها من لوح الوجود بهدم طغيانهم واسلام شعبها وهذه سلبوها ما كان في حوزتها من ممالك الشرق وشعوبه الكثيرة ، ثم دانت لهم الدنيا فاستولوا على بعض بلاد أوربا وأقاموا فيها دولة عربية شامخة البنيان كانت بهجة الدنيا وزينة الحياة ومنها شعّ النور على الشعوب الأوربية وكانت النواة الناجحة في نهضتهم الحديثة الحاضرة تلك هي فردوس الأندلس المفقود .

أما غالب مسلمة اليوم فقد اكتفوا من القرآن بألفاظ يرددونها وأنغام يلحنونها في المآتم والمقابر والدور وبمصاحف يحملونها أو يودعونها بركة في البيوت ونسوا أن بركة القرآن العظمى إنما هي في تدبره وتفهمه وفي الجلوس إليه والاستفادة من هديه وآدابه ثم في الوقوف عند أوامره ومراضيه والبعد عن مساخطه ونواهيه يقول الله تبارك وتعالى في الحث على تدبر القرآن وفهمه ومعرفة مراد الله تبارك وتعالى منه : – (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته و ليتذكر أولوا الألباب) ويقول سبحانه : – (ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر " ويعيب سبحانه وتعالى على الذين لا يتأملون القرآن ولا يتدبرون فيه فيقول سبحانه : – " أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ، فما أشبه المسلمين اليوم بالعطشان يموت من الظمأ والماء بين يديه وبالحيوان يهلك من الاعياء والنور من حوله يهديه السبيل لو فتح عينيه، ذلك هو الخسران المبين .

ألا إن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها وهو أن يعودوا إلى كتاب الله يستلهمونه الرشد ويستمنحونه الهدى ويحكّمونه في نفوسهم وفي كل ما يتصل بهم كما كان آباؤنا الأولون يتلونه حق تلاوته بتدبر وتفكر في مجالسهم ومساجدهم وأنديتهم وبيوتهم وفي صلواتهم المفروضة والنافلة وفي تهجدهم بالليل والناس نيام حتى ظهرت آثاره الباهرة عاجلة فيهم فرفع نفوسهم وانتشلها من حضيض الوثنية وأعلى هممهم و هذب أخلاقهم وأرشدهم إلى الانتفاع بقوى الكون ومنافعه .

و كان من وراء ذلك : – أن مهروا في العلوم والفنون والصناعات كما مهروا في الأخلاق والآداب والاصلاح والارشاد ، ووصلوا إلى غاية بزوا فيها كل أمم الدنيا حتى قال بعض فلاسفة الغرب في كتابه : – (تطور الأمم) ما نصه : – إن ملكة الفنون لا تستحكم في أمة

من الأمم إلا في ثلاثة أجيال : –

١) جيل التقليد .

٢) وجيل الخضرمة .

٣) وجيل الاستقلال .

وشذ العرب وحدهم فاستحكمت فيهم ملكة الفنون في جيل واحد .

وقال السيوطي في بيان الحاجة إلى التفسير ما ملخصه : – القرآن إنما نزل بلسان عربي في زمن أفصح العرب فكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه أما دقائق باطنه فلا تظهر لهم إلا بعد البحث والنظر وسؤالهم النبي صلى الله عليه وسلم مثل قولهم : – يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه حينما نزل قول الله تعالى : – (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) ففسر النبي صلى الله عليه وسلم الظلم بالشرك واستدل بقول الله تعالى : – (إن الشرك لظلم عظيم) ، وكذلك حين قال النبي صلى الله عليه وسلم : – " من نوقش الحساب عذب " سألته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن قول الله تعالى : – (فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا) فقال صلى الله عليه وسلم : – ذلك العرض .

وكقصة عدي بن حاتم : - " في الخيط الأبيض والخيط الأسود " ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه بل نحن أشد الناس احتياجا إلى التفسير لقصورنا عن مدارك اللغة وأسرارها بغير تعلم .

معشر الطلاب ، مما تقدم يتبين أن فائدة التفسير : - هي التذكر والاعتبار ومعرفة هداية الله تعالى في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ليفوز الأفراد والجاميع بخير العاجلة والآجلة .

ويتبين أيضا أن هذا العلم من أشرف العلوم الدينية والعربية إن لم يكن أشرفها جميعا وذلك لسمو موضوعه وعظم فائدته .

وسمي علم التفسير : - لما فيه من الكشف والتبيين واختص بهذا الاسم دون بقية العلوم مع أنها كلها مشتملة على الكشف والتبيين لأنه لجلالة قدره واحتياجه إلى زيادة الاستعداد وقصده إلى تبيين مراد الله من كلامه كان كأنه هو التفسير وحده دون ما عداه .

ذلك هو فضل القرآن الكريم وذلك هو فضل التفسير وضرورته وحاجة المسلمين إليه .

فما هو التفسير وما معناه ؟

التفسير في اللغة : الايضاح والتبيين ومنه قول الله تعالى في سورة الفرقان : - (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) .

أما التفسير في اصطلاح : - العلماء فهو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

وعرفوا علم التفسير أيضا بأنه علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة نزوله وسنده وأدائه وألفاظه ومعانيه المتعلقة بالألفاظ والمتعلقة بالأحكام .

كما عرفوا التفسير تعريفا ثالثا : - بأنه علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم ومدلولاتها وأحكامها الافرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حال التركيب ، وغير ذلك كمعرفة النسخ وأسباب النزول وما به توضيح المقام كالقصة والمثل .

وهذا التعريف الثالث تعريف وسط بين التعريفين السابقين ومن السهل رجوعه إلى التعريف الأول لأن ما ذكر هنا بالتفصيل يعتبر بيانا لمراد الله من كلامه بقدر الطاقة البشرية في شيء من التفصيل .

وقد ذكر العلماء للمفسر شروطا نجملها فيما يأتي : -

أولا : - صفة الاعتقاد : -

فإن العقيدة لها أثرها في نفس صاحبها وكثيرا ما تحمل ذويها على تحريف النصوص والخيانة في نقل الأخبار فإذا صنف أحد كتابا في التفسير أوّل الآيات التي تخالف عقيدته وحمّله باطل مذهبه ليصد الناس عن اتباع السلف ولزوم طريق الهدى .

ثانيا : - التجرد عن الهوى : -

فالأهواء تدفع أصحابها إلى نصرة مذهبهم فيغرون الناس بلين الكلام ولحن البيان كدأب طوائف القدرية والرافضة والمعتزلة ونحوهم من غلاة المذاهب .

ثالثا : - أن يبدأ أولا بتفسير القرآن بالقرآن : -

فما أجمل منه في موضع فإنه قد فصّل في موضع آخر ، وما اختصر منه في مكان فقد بسط في مكان آخر .

رابعا : - أن يطلب التفسير من السنة : -

فإنها شارحة للقرآن موضحة له و قد ذكر الله تبارك وتعالى أنه أنزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ووكل إليه مهمة البيان فقال : - (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : - " ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه " .

يعني : - السنة .

خامسا : – فإذا لم يجد التفسير من السنة رجع إلى أقوال الصحابة : –
فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القوائل والأحوال عند نزوله و لما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح .
سادسا : – فإذا لم يجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة فقد رجع كثير من الائمة : –
في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة مولى بن عباس وعطاء بن ابي رباح والحسن البصري وغيرهم من التابعين.
سابعا : – العلم باللغة العربية وفروعها : –
فإن القرآن نزل بلسان عربي ويتوقف فهمه على شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع .
قال مجاهد : – لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب .
والمعاني تختلف باختلاف الاعراب ومن هنا مست الحاجة إلى اعتبار علم النحو والتصريف الذي تعرف به الأبنية والكلمة المبهمة يتضح معناها بمصادرها ومشتقاتها وخواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعنى ومن حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها ثم من ناحية وجوه تحسين الكلام .
وهي علوم البلاغة الثلاثة : –
١) المعاني
٢) والبيان
٣) والبديع
من اعظم أركان المفسر إذ لابد له من مراعاة ما يقتضيه الاعجاز وإنما يدرك الاعجاز بهذه العلوم .
ثامنا : – العلم بأصول العلوم المتصلة بالقرآن كعلم القراءات : –
لان به يعرف كيفية النطق بالقرآن ويترجح بعض وجوه الاحتمال على بعض ، وعلم التوحيد حتى لا يؤول آيات الكتاب التي في حق الله وصفاته تأويلا يتجاوز به الحق .
وعلم الأصول واصول التفسير خاصة مع التعمق في ابوابه التي لا يتضح المعنى ولا يستقيم المراد بدونها كمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ ونحو ذلك .
تاسعا : – دقة الفهم التي تمكن المفسر من ترجيح معنى على آخر أو استنباط معنى يتفق مع نصوص الشريعة .

وللمفسرين أساليبهم وطرقهم ومناهجهم في التفسير ، وينقسم التفسير بهذا الاعتبار إلى أقسام منها : –
١– التفسير التحليلي : – وهو التفسير الذي يقف فيه المفسرون أمام كل آية حسب الترتيب المصحفي ويقوم بتحليلها تحليلا موسعا يعنى فيه بتحقيق المفردات ودلالتها اللغوية ويبرز دلالتها التركيبية وما يستنبط منها من معان وحكم مبرزا ما يتعلق بالآية من مختلف الموضوعات والمباحث والمسائل في العقيدة واللغة والنحو والبلاغة والروايات والأخبار والقراءات واسباب النزول إن وجدت مشيرا إلى أهم ما ترمي إليه من قواعد وعظات متناولا ذلك بأسلوب واضح بيّن ويقدم المفسر بذلك ثقافة موسوعية متعددة وشاملة .
٢– التفسير الإجمالي : – وفيه يقوم المفسر بتوضيح المراد من كتاب الله تعالى متناولا الآيات القرآنية على غرار ما يتناوله بها في المنهج التحليلي لكن بإجمال واختصار وإيجاز فيقدم المعنى الإجمالي للآيات بدون توسع أو تفصيل ودون تحليل أو تطويل ويذكر أرجح الاقوال ضاربا صفحا عن الأقوال المرجوحة ويذكر ذلك بأسلوب مركز موجز دون استطراد في المباحث اللغوية أو العقدية أو الفقهية ونحوها . وأهم من يمثل هذا النوع وأبرز من يتسم بهذا النوع الامام النسفي في تفسيره

مدارك التنزيل وحقائق التأويل والجلالين في تفسيرهما والامام الواحدي في تفسيره الوجيز في تفسير القرآن والعلامة السعدي في تفسيره تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، وهذا النوع يمكن أن يلحق بالنوع السابق ويدخل ضمنه لأنهما يقومان على خطوات واحدة إلا أن الأول يغاير الثاني في طريقة العرض والتناول وهي الاطناب بينما يتناولها الأخير بشيء من الاختصار والإيجاز.

٣- التفسير المقارِن : - وهو أن يجمع المفسر فيه بين ما كتبه مفسران أو أكثر و يبرز ما بين الكاتبين أو الكتّاب من تمايز أو اتفاق أو اختلاف ويوضح أوجه التفوق والقصور والتأثر والتأثير وهذه المقارنة لا تشمل تفسير القرآن كله لأن هذا غير وارد وإنما تكون خاصة بصورة معينة أو موضوع محدد .

٤- التفسير الموضوعي : - وهو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من سورة واحدة أو أكثر .

هذه هي مناهج المفسرين وأساليبهم و طرقهم في التفسير ، وسنشرح إن شاء الله تبارك وتعالى الجزأين المشار إليهما : - جزء عم وتبارك تفسيرا إجماليا ونسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد .

التفسير الاجمالي

المحاضرة الثانية

تفسير سورة الملك

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ..

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

معشر الطلاب بسم الله نبدأ في تفسير سورة الملك وهي سورة مكية شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة وبيان أصول الدين وبخاصة التوحيد والرسالة والبعث ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه السورة كل ليلة قبل منامه وحث أصحابه على قراءتها فقال : -

إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له وهي : - (تبارك الذي بيده الملك)

و قد قررت الآية الأولى من هذه السورة الكريمة حقيقتين اثنتين : -

الأولى : - أن الملك بيد الله وحده .

والثانية : - أن الله على كل شيء قدير .

ثم جاءت الآيات التسع والعشرون تأكد هاتين الحقيقتين وتقررهما بأساليب مختلفة استفتح الله تبارك وتعالى السورة الكريمة بقوله : - (تبارك الذي بيده الملك و هو على كل شيء قدير)

هكذا مجد الله سبحانه نفسه (تبارك الذي بيده الملك) أي : - تنزه و تعالى عن النقائص وعظمت بركاته وكثرت خيراته .

(الذي بيده الملك) فهو : - المالك له المهيمن عليه القابض على ناصيته المتصرف فيه ، وهذه هي الحقيقة الأولى التي تقررها الآية كما سبقت الاشارة إليه وهي حقيقة طالما ذكرها القرآن وكررها كما في قول الله سبحانه : - (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير)

و كما في قوله سبحانه : - (لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون)

وقوله تعالى : - (وهو على كل شيء قدير) هذه هي الحقيقة الثانية : - التي قررتها الآية الأولى من هذه السورة ، أن الله سبحانه الذي له ملك السماوات والأرض لا يعجز عن شيء ولا يعجزه شيء كما قال تعالى : - (وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا) وكما قال سبحانه وتعالى حكاية عن مؤمن الجن : - (وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا) وهو سبحانه فعال لما يريد لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره ، وهاتان الحقيقتان تجعلان المسلم دائما لا يلتفت إلى غير الله تعالى ولا يتعلق قلبه بغير الله رجاء ولا خوفا فإذا سأل سأل الله وإذا استعان استعان بالله ليقينه التام أن الله وحده هو المالك وما سواه مملوك وأن الله وحده هو القادر وما سواه أعجز عن أن يحقق لنفسه نفعا أو يدفع عنها ضرا فضلا عن أن يكون أقدر على ذلك لغيره ، وهذا هو ما وصى به النبي صلى الله عليه وسلم ابن عباس حين قال له : - " يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن

ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الاقلام وجفت الصحف " .

وقوله تعالى : – (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور) هذا أول أثر من آثار انفراده سبحانه بالملك وتصريفه له وأول أثر من آثار قدرته على كل شيء وطلاقة إرادته فهو سبحانه وتعالى يحيي ويميت وقد خلق الموت والحياة لغاية عظيمة وإنما قدم سبحانه وتعالى ذكر الموت على الحياة لأن الموت سابق الحياة والعدم سابق الوجود كما قال تعالى : – (هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) وقال سبحانه : – (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون)

كما قدم الله سبحانه وتعالى الموت على الحياة حتى يكون الانسان أكثر ذكرا للموت من الحياة وأشد حرصا على ما بعد الموت منه على الحياة فلا يغفل عن ذكر الموت وما بعده كما وصى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : – " أكثروا هادم اللذات الموت "

وأما قوله تعالى : – (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) فهو : – بيان لحكمة خلق الخلق وخلق الموت والحياة ، (ليبلوكم) أي : – ليختبركم ويمتحنكم ، (أيكم أحسن عملا) ولم يقل ربنا سبحانه ليبلوكم أيكم أكثر عملا حتى يهتم المسلم بتحسين عمله لا بكثرته ، فركعتان يسبغ وضوئهما وحسن قراءتهما ويطمئن في ركوعهما وسجودهما خير من ألف ركعة بخلاف ذلك ، فالإسلام إنما يهتم بالكيف ولا يهتم بالكم .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله في تفسير هذه والآية : – (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) قال : – لا يكون العمل مقبولا حتى يكون خالصا وصوابا فإن كان خالصا وليس صوابا أو صوابا وليس بخالص لم يقبل حتى يكون خالصا وصوابا ، قالوا : – يا أبا علي فما الخالص وما الصواب ؟ قال الخالص ما ابتغي به وجه الله والصواب ما وافق هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك قال العلماء : – ينبغي لكل من هم بعمل أن يسأل نفسه سؤالين : – لم ؟ و كيف ؟ فإن كان الجواب لله وعلى طريقة رسول الله فليتوكل على الله وإن كان الجواب لغير الله وعلى غير طريقة رسول الله فليرح نفسه من عناء عمل لا يسمن ولا يغني من جوع ، وكذا لو كان أحد الجوابين مخالفا والآخر موافقا لأنه لابد من تحقق الجوابين الصحيحين : – لله وعلى طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله سبحانه : – (وهو العزيز الغفور) أي : – هو العزيز العظيم المنيع الجناب ، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب بعدما عصاه وخالف أمره ، فهو سبحانه وتعالى وإن كان عزيزا فهو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز لأنه سبحانه رحيم بعباده لا يعنفهم ولا يحب أن يعذبهم إنما يريد لهم ان يتيقظوا لغاية وجودهم وأن يرتفعوا إلى مستوى حقيقتهم وأن يحققوا تكريم الله لهم إذا تم لهم هذا فهناك الرحمة السابغة والعون الكبير والسماحة الواسعة والعفو الكثير وصدق الله العظيم حيث يقول : – (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم و أمنتم وكان الله شاكرا عليما)

وقوله سبحانه : – (الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) هذه أيضا بعض آثار قدرة الله تعالى وتصرفه في ملكه فهو الذي خلق سبع سماوات طباقا أي : – سبع طوابق بعضها فوق بعض .

والراجح أن هناك مسافة بين كل سماء والتي فوقها بدليل حديث المعراج فقد ثبت فيه أن جبريل لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى السماء الدنيا استفتح ففتح له فعرج به الى السماء الثانية ثم افتتح ففتح له .

وهكذا ورد أيضا في حديث البراء بن عازب في وصف قبض الملائكة الأرواح : – وأنها تعرج بروح العبد المؤمن فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه في كل سماء مقربون والتي تليها وهكذا .
(ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) فليس في خلق الله عز وجل خلل ولا نقص ولا اضطراب فارجع البصر مرة بعد مرة هل ترى في خلق الرحمن من فطور أي : – شقوق وخلل ثم ارجع البصر كرتين فربما فاتك شيء في النظرة السابقة لم تتبينه فأعد النظر ثم اعده فإنما النتيجة واحدة وهي : – (ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) اي : – كليل متعب قد انقطع من الاعياء من كثرة التكـــرر ولا يرى نقصا لأن السماء صنع الله الذي أتقن كل شيء وخلق الذي أحسن كل شيء خلقه سبحانه وتعالى .
وقوله سبحانه : – (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) هي : – الكواكب والنجوم جعلها الله سبحانه وتعالى زينة للســـماء الــدنيا القريبة منا والتي نراها ، فالكواكب في السماء كالعقد في رقبة المرأة يزيدها حسنا وبهاء وجمالا (وجعلناها رجوما للشياطين) هــذه وظيفة ثانية . للنجوم فهي زينة للسماء ورجوم للشياطين وثمة وظيفة ثالثة وهي أن يهتدي بها الخلق في ظلمة البر والبحر كما قال تعالى : – (وبالنجم هم يهتدون) ، والوظيفتان الأولى والثالثة واضحتان وأما كونها رجوما للشياطين فقد فسرتها آيات الصافات وهي قوله سبحانه : – (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبه شهاب ثاقب) وكانت الشياطين قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم يسترقون السمع يركب بعضهم بعضا إلى عنان السماء فيسمع أعلاهم الكلمة يتكلم بها الملائكة فيما بينهم مما أخبرهم الله أنه سيكون في الأرض فيلقيها إلى الذي يليه وهكذا حتى تصل أدناهم فيقرها في أذن وليه من الكهنة والعرّافين فيخبر الناس بها فيترقبها الناس فتكون كمـــا أخبر فتكون فتنة للظالمين ويقودها ذلك الدجال ذريعة فيكذب معها مائة كذبة فلما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم حُرست الســـماء وحيل بينهم بين ما يشتهون فكانوا إذا استرق أحدهم السمع قذف بشهاب ثاقب فهذه هي وظيفة النجوم ومعنى قول الله تعالى : – (وجعلناها رجوما للشياطين) (وأعتدنا لهم) أي : – للشياطين (عذاب السعير) أي : – في الآخرة فكان الرجم خزيا لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ولما كان كفر من كفر من الانس استجابة لدعوة أولياءهم من الجن جمع بينهم في العذاب المهين فقـــال سبحانه عن شياطين الجن (واعتدنا لهم عذاب السعير) ثم قال عن أولياءهم من الانس : – (وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم) أي : – (واعتدنا للذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير) أي : – بئس المآل والمنقلب ، كما قال الله تعالى عن النار : – (إنهـــا ساءت مستقرا ومقاما)
ثم يرسم سبحانه وتعالى مشهد جهنم هذه وهي تستقبل الذين كفروا في غيظ وحنق شديدين فيقول سبحانه وتعالى : – (إذا ألقوا فيها) هكذا يلقون كما يلقى الشيء الحقير الذي قد استغني عنه ويطرح فلا يهتم به بعد ذلك لهوانه على نفس من ألقاه ، وهكذا يلقـــى أهل النار لهوانهم على الله (فإذا القوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور) أي : – تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير (تكاد تميز من الغيظ) أي : – تكاد تتقطع من حنقها بهم وغيظها عليهم كما قال سبحانه : – (بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمـــن كـــذب بالساعة سعيرا إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعو اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا)
وقوله سبحانه : – (كلما ألقي فيها فوج) أي : – جماعة (سألهم خزنتها) وهم زبانية النار سألوا الذين يلقون في النار على وجوههم سؤال توبيخ وتقريع وتأنيب (ألم يأتكم نذير) لأن الله عز وجل لا يعذب أحدا من خلقه إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسل كما قال سبحانه : – (وما كنا معذبين حتى نبعث رسول) (ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شـــيء إن أنتم إلا في ضلال كبير) فلم يكفهم لعنهم الله أنهم كذبوا الرسل حتى اتهموهم بالضلال الكبير وهكذا يفعل الران بالقلب فيجعله يرى

الحق باطلا والباطل حقا والهداية ضلالة والضلالة هداية كما قال الله تعالى : – (ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين
كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) أي : – ليس الأمر كما زعموا و لا كما قالوا إن هذا القرآن أساطير الأولين بل هو كلام الله ووحيه وتتريل على رسوله صلى الله عليه وسلم وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذين قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ثم عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير أي لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاء به الرسل ولم تكن لنا عقول ترشدنا إلى اتباعهم فاعترفوا بذنبهم حيث لا ينفع الاعتراف وندموا حيث لا ينفع الندم وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين فسحقا لأصحاب السعير أي : – بعدا وهلاكا لهم .
ولما ذكر الله تعالى مصير الأشقياء أتبعهم بذكر مصير السعداء فقال سبحانه : – (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) ولفظ الغيب يشمل : – خشية الله من غير أن يرى كما يشمل خشية الله في السر حين يغيب الانسان عن أعين الناس ، فخشية الله تبارك وتعالى تحمل الذين يخشون ربهم بالغيب على مراقبة الله والاقلاع عن معصيته حيثما كانوا لعلمهم أن الله معهم وأن الله يـراهم كما قال سبحانه : – (ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الارض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هـو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم) فإذا هم أحدهم بسيئة تذكر أن الله يراه فخاف مقامه بين يديه فرجع عما هم به فيدخل بذلك في الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله كما قال صلى الله عليه وسلم : – " سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله وذكر منهم ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقـال إني أخاف الله " .

ولقد كان السلف رضوان الله عليهم : – يتواصون بمراقبة الله تعالى وخشيته فقد كتب بعضهم إلى اخ له يقول : – زهـدني الله و إياك في الحرام زهد من قدر عليه في الخلوة فعلم أن الله يراه فتركه من مخافة الله ، وهذا هو مقام الاحسان الذي فسره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : – " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " .

ثم ذكر الله تبارك وتعالى ما يعين العباد على مراقبته وخشيته فقال : – (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصـدور) فالسر والجهر سواء عند الله سبحانه لأنه عليم بما في الصدور كما قال سبحانه وتعالى : – (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) وقال سبحانه : – (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور) إنه عليم بذات الصدور لأنه : – هو الذي خلق الصدور وما فيها (ألا يعلم من خلـق وهو اللطيف الخبير) .

ثم يذكر الله تبارك وتعالى عباده بنعمة من نعمه وهي نعمة تسخير الأرض فيقول عز وجل : – (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا) أي : – سهلة منقادة تحفرونها للبناء وتشقونها للغرس والزرع وتستخرجون منها كنوزها وهي ذلول لا تستعصي عليكم فامشـوا في مناكبها أي : – سافروا من قطر إلى قطر ومن مصر إلى مصر وكلوا من رزقه فالرزق رزقه وهو الذي يرزقكم وسعيكم في الـبلاد لا يجدي شيئا إلا بأن ييسره الله لكم وفي هذا إشارة إلى أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله فـإن الله قـال : – (فامشـوا في مناكبها) أي : – سيروا في الأرض واطلبوا رزق الله وأنتم متوكلون على الله واثقون بما عند الله وأن ما قدّر الله يكون (وإليه النشور) أي : – المرجع يوم القيامة فإذا انقلبتم إلى أهليكم وعدتم من أسفاركم فتذكروا العودة إلى الله وأنكم إليه راجعون فكما ترجع من سفرك إلى أهلك فسترجع من هذا السفر الطويل إلى ربك فتزود من سفرك زادا يرضي عنك ربك إذا رجعت إليه واعلم أن خير الزاد التقوى .

وقوله سبحانه : – (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) من في السماء هو الله سبحانه وتعالى فالله سبحانه وتعالى في السماء على العرش استوى كما أخبر عن نفسه في مواضع كثيرة من كتابه وكما قال النبي عليه الصلاة والسلام : – " والذي نفسي بيده ما من امرأة يبيت زوجها ساخطا عليها إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها زوجها " ، وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم بالإيمان لمن شهد بأن الله في السماء ففي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجارية : – " أين الله قالت في السماء قال : – من أنا ؟ قالت : – أنت رسول الله قال لصاحبها أعتقها فإنها مؤمنة " .

وقد تضمنت الآيات جملة من التهديدات التي تهز الغافلين هزا ليفيقوا من غفلتهم وينتبهوا من رقدتهم قبل أن يأخذهم الله كما أخذ الذين من قبلهم (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ولقد كذب الذين من قبلهم) قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله (فكيف كان نكير) أي : – فكيف كان إنكاري عليهم وأخذي لهم كان والله عظيما شديدا أليما كما قال سبحانه : – (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا فكيف كان عذابي ونذر) فاعتبروا يا أولي الأبصار فإن العاقل من اتعظ بغيره والأحمق من وعظ به غيره .

ثم قال سبحانه : – (أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير) هذا مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى وأثر من آثار تدبيره أمر كل شيء يلفت أنظارهم إليه ليريهم آياته ، أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات أجنحتهن تارة ويقبضن أجنحتهن تارة أخرى ما يمسكهن في السماء أن يقعن على الأرض إلا الرحمن سبحانه وتعالى إنه بكل شيء بصير أي : – بصير بما يصلح كل شيء من مخلوقاته وهذه الآية كقوله تعالى : – (ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) والله الذي يمسك الطير في السماء هو الذي يمسك الطائرات الحديدية في السماء وهو الذي يمسك السفن في البحار أن تغرق فيها قال الله تعالى : – (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين) وهو سبحانه الذي يمسك السماء وما فيها أن تقع على الأرض (ويمسك السماوات والارض أن تزولا) كما قال سبحانه : – (ألم تر أن الله سخر لكم ما في الارض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الارض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم) وقال تعالى : – (إن الله يمسك السماوات والارض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا) وقوله سبحانه : – (أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور) هذا تهديد آخر وقد سبق أن هددهم بأن يخسف بهم الأرض أو يرسل عليهم حاصبا وهو في هذه الآية يسألهم من هذا الذي ينصرهم ويحميهم من الله أمن هذا الذي ينصرهم على أعدائهم غير الله لقد كانوا اتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون فأخبرهم الله أن آلهتهم أعجز ما تكون عن نصر أنفسها فضلا عن نصرها لهم فقال تعالى : – (لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) وقال هنا : – (إن الكافرون إلا في غرور) حين يعتقدون أن غير الله قادر على أن يدفع عنهم بأس الله أو أن ينصرهم على أعدائهم .

وقوله سبحانه : – (أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه) وهم يعلمون أنه لا رازق لهم إلا الله سبحانه وتعالى ولذلك قال : – (بل لجوا في عتوا ونفور) أي : – استمروا في طغيانهم وافكهم وضلالهم وكان الواجب وقد اعترفوا أن الله هو الذي يرزقهم أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئا قال الله تبارك وتعالى : – (قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل افلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون) عن عبادة الله وحده إلى عبادة مالا يخلق ولا يرزق ولا يملك من الامر شيئا .

ثم ضرب الله مثلا للمؤمن والكافر فقال : – (أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم) فالكافر مثله فيما هو فيه من الضلال والكفر كمثل من يمشي مكبا على وجهه منحنيا لا مستويا لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب بل هو تائه حائر ضال فهل هذا أهدى أمن يمشي سويا معتدلا منتصب القامة على صراط مستقيم أي : – على طريق واضح بين وهو في نفسه مستقيم هذا مثله في الدنيا و كذلك يكونون في الاخرة ، فالمؤمن يحشر ماشيا سويا على صراط مستقيم مفض به إلى الجنة الفيحاء وأما الكافر فإنه يحشر ماشيا على وجهه إلى نار جهنم والعياذ بالله وعلى ذكر الهدى والضلال يذكرهم بما وهبهم من وسائل الهدى وأدوات الادراك ثم لم ينتفعوا بها ولم يشكروه عليها (قل هو الذي أنشأكم) .

أي : – الله الذي خلق الموت والحياة هو الذي أنشأكم من العدم ووهبكم الحياة وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة وهي وسائل المعرفة والبحث عن الحقيقة وهي وسائل الادراك والهداية ومع ذلك قليلا ما تشكرون أي : – قلما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره ، (قل هو الذي ذرأكم في الارض) أي : – بثكم في الارض وفرقكم في أقطارها (وإليه تحشرون) أي : – تجمعون بعد هذا التفرق ولكن الكافرون ينكرون قدرة الله على جمعهم هذا ويقولون : – (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وهو سؤال الشاك المستريب حملهم عليه جهلهم بما أعد الله لهم من العذاب لمن كذب بالساعة فقال تعالى : – (قل إنما العلم عند الله) اي : – لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله عز و جل وقد أنذرتكم وبينت لكم وهذه هي وظيفتي (فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدّعون) قال الله تعالى : – (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) فأجيبوا (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) ولقد كان المشركون يقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم : – شاعر نتربص به ريب المنون وكانوا يتواصون بينهم بالصبر عليه حتى يموت كما مات من قبله من الشعراء فأمر الله تبارك وتعالى نبيه أن يقول : – (قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) وهكذا يلتفت من الخطاب إلى الغيبة فهو لا يقول لهم فمن يجيركم ولكن فمن يجير الكافرين ، وهو أسلوب رائع من أساليب الدعوة التي يجب على الدعاة أن يأخذوا أنفسهم بها .

(قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) إنهم آمنوا بربهم وتوكلوا عليه والله لا يعذب المؤمنين المتوكلين عليه وإنما يعذب الكافرين به المعرضين عنه ولهذا قال : – (فستعلمون من هو في ضلال مبين) نحن أم أنتم كما ستعلمون أينا ستكون له عاقبة الدار .

وأخيرا يلمح لهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة وذلك بحرمانهم من سبب الحياة الاول وهو الماء (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا) أي : – ذاهبا في الارض إلى أسفل (فمن يأتيكم بماء معين) أي : – نابع سائح جار على وجه الارض أي : – لا يقدر على ذلك إلا الله فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها في سائر اقطار الارض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة

فلله الحمد والمنة وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الاجمالي

المحاضرة الثالثة

تفسير سورة القلم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

معشر الطلاب نحن الان على موعد مع تفسير سورة القلم فنقول وبالله تعالى التوفيق : -

سورة القلم : -

سورة مكية : - شأنها شأن السور المكية في الاهتمام ببيان أصول الدين وأركان الايمان التي أهمها التوحيد والرسالة والبعث .

لكن محور السورة وموضوعها الرئيس : - هو الرسالة والرسول وموقف المشركين منهما .

استفتحت السورة الكريمة : - بالقسم من الرب عز وجل على براءة نبيه صلى الله عليه وسلم مما اتهمه المشركون بقولهم شاعر مجنون ، ثم أثنى الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم لأخلاقه الحميدة وشهد له أنه بلغ أعلى درجات الأخلاق ثم نهاه عن الاستجابة للمشركين فيما يدعونه إليه من أنصاف الحلول (ودوا لو تدهن فيدهنون)

ولقد كانت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم نعمة على قومه فكفروا بها فضرب الله لهم مثلا بأصحاب الجنة وخوفهم عاقبة الكفر والطغيان ثم نفى التسوية بين المؤمنين والكافرين وذكر شيئا من أهوال اليوم الآخر التي يظهر فيها الفرق بين المؤمنين والكافرين جليا .

وختمت السورة الكريمة : - بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر وحذرته أن ينفذ صبره فيكون كصاحب الحوت (إذا نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فاجتباه ربه فجعله من الصالحين)

استفتحت السورة الكريمة : - بحرف نون وهو حرف من الحروف الأبجدية المعروفة

وقد اختلف المفسرون في سر استفتاح الله تبارك وتعالى بعض سور القرآن الكريم بمثل هذا الحرف .

والراجح والله أعلم بأسرار كلامه : - أن الله عز وجل أراد أن يبطل زعمهم أن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم افتراه من عند نفسه فقال : - لهم إن القرآن مؤلف من هذه الحروف : - ن ، ق ، ص ، حم ، طس ، ونحوها وهي نفسها التي يتألف منها كلامكم ومحمد واحد منكم ولغته لغتكم فإن كان افتراه فأتوا بحديث مثله : - إن كنتم صادقين فإن عجزوا فمحمد أعجز منهم فليعلموا أنه كلام الله رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلب محمد ليكون من المنذرين ، قال الله تعالى : - (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة) اتقوها بالإيمان بأن القرآن كلام الله تعالى وليس كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : - (والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون) هذا قسم من الله تبارك وتعالى بالقلم وبالكتابة والله سبحانه وتعالى يقسم ببعض مخلوقاته إشارة إلى عظمتها وعلو مكانتها .

فهذا القسم فيه إشارة إلى الاهتمام بالكتابة التي هي أساس التعليم لأن هذا الدين الاسلام يقوم على أساس من العلم ولذا كانت أول آيات القرآن نزولا (اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علي الانسان ما لم يعلم) وقد كثرت الآيات والأحاديث في الحث على طلب العلم وبيان فضله وشرفه وشرف حملته ، وجواب القسم (ما أنت بنعمة ربك

بمجنون) والمراد بالنعمة النبوة ، والنبوة فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وما كان الله تبارك وتعالى ليبعث في الناس مجنونا ، والعجيب أن القوم حين قالوا ما قالوا كانوا يعلمون كذب أنفسهم إذ كيف يكون مجنونا من كانوا يحكمونه فيما فيه يختلفون وكيف يكون مجنونا من لقبوه دون عظمائهم بالصادق الأمين ولكنه البغي والحسد ، ولذا قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : – (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وفي قولهم هذا وشهادة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بالبراء منه عزاء لكل من يقال فيه من الدعاة ما ليس فيه ، فليوطن الدعاة أنفسهم على الصبر وأن يحتسبوا الأجر عند الله على أي : – أذى يلحقهم في سبيل الدعوة فإنها سنة مطردة في الدعاة ولذا قال لقمان لابنه وهو يعظه (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) وقوله تعالى : – (وإن لك لأجرا غير ممنون) أي : – إن لك أجرا دائما مستمرا لا ينقطع على صبرك عليهم وتبليغك رسالة ربك إليهم مع تكذيبهم لك وإعراضهم عنك (وإنك لعلى خلق عظيم) وإنها لشهادة عظيمة من العلي العظيم لنبيه العظيم بعظمة أخلاقه فلإن جاز لحملة الشهادات أن يعلقوها على الجدران فإن هذه الشهادة تستحق أن تكتب بسبائك الذهب وتعلق على جدران الفضة لأنها من الله و كفى بالله شهيدا ، عن سعيد بن هشام قال : – سألت عائشة فقلت : – أخبريني يا أم المؤمنين عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : – أتقرأ القرآن فقلت نعم فقالت : – كان خلقه القرآن ، ومعنى هذا : – أنه صلى الله عليه وسلم صار امتثال القرآن أمرا ونهيا سجية له وخلقا تطبعه وترك طبعه الجبلي فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه هذا معنى ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل .

كما ثبت عن أنس رضي الله عنه قال : – خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي أف قط ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ولا لشيء لم أفعله ألا فعلته ، وكان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا والأحاديث في هذا كثيرة ولأبي عيسى الترميذي في هذا كتاب الشمائل . ولقد كان صلى الله عليه وسلم يحث على مكارم الأخلاق ويرغب فيها فكان يقول : – " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " وكان يقول : – " أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم " وكان يقول : – " إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القادم " .

وبعد هذا الثناء الكريم من الله عز وجل على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم يطمئن الله نبيه على غده مع المشركين الذين رموه بذلك البهة اللئيم فيقول : – (فستبصر

و يبصرون بأييكم المفتون) أي : – فستعلم يا نبينا ويعلم مخالفوك ومكذبوك من الضال أنت أم هم ؟

لقد قال قوم ثمود من قبل لنبيهم صالح (بل هو كذاب أشر) فقال تعالى : – (سيعلمون غدا من الكذاب الأشر) هم أم صالح ؟ وها هم المشركون يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم شاعر مجنون (أتواصوا به بل هم قوم طاغون) والله يتوعدهم بالفضيحة على رؤوس الأشهاد ويوم القيامة فيقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : – (فستبصر ويبصرون بأييكم المفتون) وهذا الوعد من الله يشير إلى أن الغد سيكشف عن حقيقة النبي وحقيقة مكذبيه ويثبت أيهم الممتحن بما هو فيه أو أيهم الضال فيما يدعيه ، ويطمئنه إلى أن ربه أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، وربه هو الذي أوحى إليه فهو يعلم أنه المهتدي ومن معه وفي هذا ما يطمئنهم وما يقلق أعداءه ، وما يبعث في قلوبهم التوجس والقلق لما سيجيئ . ولقد كان المشركون حريصين على صرف النبي صلى الله عليه وسلم عن دعوته واستخدموا لذلك كل الأساليب ، استدموا الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والمدح والذم ، وأبدوا استعدادهم للتنازل عن كثير مما هم عليه في مقابل أن يتنازل هو عن بعض ما يدعوهم إليه وبذلك ينتهي الخلاف وتنتهي المشاكل وتفض الخصومات بينه وبينهم ، ولكن الله عصم نبيه صلى الله عليه وسلم عن الاستجابة لهم ونهاه عن ذلك فقال : – (فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون) ودوا لو تميلوا الى آلهتهم وتتركوا ما أنت عليه من الحق فيدهنون هم ويتركون كثيرا مما كانوا عليه مقابل أن تميل أنت شيئا قليلا إلى

آلهتهم ، ولقد ربط الله على قلب نبيه وثبته على دينه وامتن عليه بذلك فقال له : – (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا) ولقد نهى الله نبيه في هذه السورة عن طاعتهم وأمره في سورة أخرى بإعلان البراءة منهم فقال سبحانه : – (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين) .

ثم خص الله تبارك وتعالى رجلا من المشركين بالنهي عن الطاعة ، فعمّ أولا المشركين بالنهي عن طاعتهم قال : – (فلا تطع المكذبين) ثم خصّ أحدهم بالنّهي فقال : – (ولا تطع كل حلاّف مهين ....) .

وقد اختلف المفسّرون في المراد بهذه الآيات على قولين : –

الاول : – أنه الوليد بن المغيرة

والثاني : – أنه الأخنس ابن شريق

والله تعالى أعلم .

قد قال ذلك الرجل في القرآن الكريم : – (إن هذا إلا أساطير الأولين) (إن هذا إلا قول البشر) (إن هذا إلا سحر يؤثر) فلما قال في القران : – أنه قول البشر دمغه الله تعالى بصفات قبيحة كل صفة منها أقبح من أختها فقال عز وجل : – (ولا تطع كل حلّاف مهين) وكثرة الحلف عنوان الكذب فلا يلجأ إلى كثرة الحلف إلا الكذّاب أما الصادق فلا يلجأ إلى الحلف أبدا ولاسيما إذا رفع ذكره وعرف بين الناس بصدقه ، والكذاب يكذب نفسه قبل أن يكذبه غيره فيلجأ إلى الأيمان الكاذبة ليصدقه الناس وهو يعلم أنه كاذب وقد وصف الله كل حلاف بأنه مهين أي : – حقير ذليل .

قال الحسن : – كل حلاف مكابر مهين ضعيف ، وصفة المهانة نفسية لا تفارق النفس المهينة ولو تجردت من كل أعراض الحياة الدنيا ، وقوله تعالى : – (همّاز) أي : – يهمز الناس ويعيبهم وقد توعده الله سبحانه وتعالى بالحطمة فقال : – (ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده يحسَب أن ماله أخلده كلا لينبذن في الحطمة وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة) وقد نهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن الهمز واللمز فقال : – (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) وأما قوله تعالى : – (مشاء بنميم) فهو الذي يمشي بين الناس ويحرش بينهم وينقل كلام الناس ليوقع بينهم العداوة والبغضاء وهذا من شر الناس عند الله يوم القيامة كما في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : – " ألا أنبأكم بشراركم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبرآء العنت " وأخبر صلى الله عليه وسلم أن النميمة من الأسباب الموجبة لعذاب القبر ففي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : – " مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال : – " إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستتر من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة " كما أخبر صلى الله عليه وسلم أن النمام لا يدخل الجنة فقال : – " لا يدخل الجنة قتّات يعني نمام " .

وقوله تعالى : – (منّاع للخير) أي : – يمنع الخير عن نفسه وعن غيره ، لقد منع عن نفسه الايمان وهو جماع الخير كما منعه عن غيره بالصد عنه والنهي عنه ، والمناع للخير من أهل جهنم كما قال الله تبارك وتعالى : – (ألقيا في جهنم كل كفّار عنيد منّاع للخير معتد مريب الذي جعل مع الله إله آخر فألقياه في العذاب الشديد)

وهو مع منعه الخير عن الناس معتد أثيم ، فلم يسلم الناس من شره وأذاه حين منعهم الخير بل جمع بين الشرين فمنع عنهم الخير وأوصل إليهم الضرر والأذى ، وقوله تعالى : – (عتل) هو الفظ الغليظ الصحيح الجموع المنوع وهذه صفات أهل النار كما

قال النبي صلى الله عليه وسلم : – " ألا أنبأكم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره ألا أنبأكم بأهل النار كل ذل جوار مستكبر " فقوله تعالى : – (بعد ذلك زنيم) أي : – بعد هذه الصفات الذميمة فهو زنيم .
وقد ذكر المفسرون في معنى هذه الصفة أقوالا كثيرة أرجحها قولان : –
الأول : – الزنيم هو الرجل المعروف بلأمه وخبثه حتى كأن به علامة يعرف بها .
والثاني : – أن الزنيم هو الدعي الذي لا يعرف نسبه .
وقوله تعالى : – (أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) معناها : – هل هذا جزاء إنعامي عليه بالمال والبنين وهل جزاء الاحسان إلا الإحسان فبدلا من أن يبادر إلى شكري بالإيمان بي وتصديق رسولي جعل شكره التكذيب بآياتي وقال أساطير الاولين ومن ثم يجيء التهديد (سنسمه على الخرطوم) وهو الأنف والعرب تعبر عن العزة والذلة بوصف الأنف فتقول أنف أشم للعزيز وأنف في الرغام للذليل ومنه قولهم : – رغم أنف فلان أي : – ذل لأن أكرم ما في الانسان وجهه وأعلى ما في الوجه الانف فإذا رغم الأنف أي : – لصق بالتراب فذلك عنوان الذلة أعاذنا الله والمسلمين من ذل الدنيا وعذاب الآخرة .
ثم ضرب الله سبحانه وتعالى لكفار قريش مثلا : – إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فكذبوه وكفروا بما جاءهم به وهو أعظم نعمة لله عليهم فضرب الله لهم مثلا أصحاب الجنة ليروا كيف تكون عاقبة كفر النعمة في الدنيا ولعذاب الاخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، ولهذا قال تعالى : – (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم)
(إنا بلوناهم) أي : – اختبرناهم وامتحناهم لبعثة محمد صلى الله عليه وسلم (كما بلونا أصحاب الجنة) أي : – البستان المشتملة على أنواع الثمار والفواكه وكانوا ورثوه من أبيهم وكان أبوهم رجلا صالحا كان إذا أخذ ثمار هذا البستان رد فيه ما يحتاج إليه وادخر لهم قوت سنتهم وتصدق بالباقي فلما مات قالوا : – لقد كان أبونا في ضلال مبين كيف يصرف من هذه الثمار للفقراء من غير عمل عملوه ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا فاتفقوا على ذلك وأقسموا عليه ولذلك قال تعالى : – (إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) أي : – حلفوا ليجزنها في الصباح الباكر قبل انتشار الفقراء ولا يستثنون في يمينهم ولهذا حنثهم الله فيها (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) أي : – أصابتها آفة سماوية فأصبحت كالصريم أرض جرداء سوداء لا زرع فيها ولا ماء ، وهكذا يؤاخذ الله سبحانه وتعالى بالعزم دون الهم والفرق أن الهم ما حدّث الانسان نفسه به من غير أن يعقد قلبه عليه والعزم ما حدّث به نفسه وعقد قلبه عليه .
فالثاني يؤاخذ الله به وإن لم يفعله الانسان كما قال النبي صلى الله عليه و سلم : – " إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال : – إنه كان حريصا على قتل صاحبه " وأما الاول فقد صحت الأحاديث بأن من هم بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة وقوله تعالى : – (فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين) أي : – نادى بعضهم بعضا في الصباح الباكر إن كنتم جادين فيما عزمتم عليه من حرمان الفقراء فهذا وقت غدوكم قبل أن يستيقظ الفقراء (فانطلقوا وهم يتخافتون) أي : – يتحدثون سرا خشية أن يسمعهم أحد ولكن الله الذي يعلم السر وأخفى قد سمع سرهم ونجواهم فأخبرنا به وهو قولهم : – (أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) يحذر بعضهم بعضا لا تمكنوا المساكين من الدخول عليكم (وغدوا على حرد قادرين) اي : – غدوا إلى الجنة وهم في ظنهم قادرون على حرمان المساكين وما أن وصلوا حتى كانت المفاجأة فلما رأوها وهي كالصريم كما وصف الله سبحانه وقفوا حيارى (قالوا إنا لضالون) اي : – ضللنا الطريق لكن هذه معالم أرضنا أليست هذه أرض فلان وهذه أرض فلان فهذه أرضنا فما ضللنا .

إذن بل نحن محرومون قد حرمنا خير جنتنا وثمارها بسبب ما عزمنا عليه من حرمان المساكين وجزاء سيئة سيئة مثلها قال أوسطهم أي : – أعدلهم وأقربهم إلى الله تعالى والظاهر أنه قد خالفهم الرأي ونهاهم عما أرادوا فلم يطيعوه فلما أصابهم ما أصابهم ذكرهم بما قال لهم كالموبخ لهم على مخالفتهم (ألم أقل لكم لولا تسبحون) اي : – لولا تستثنون لولا تقولون إن شاء الله والان فقط يستجيبون له فيسبحون بعد فوات الاوان (قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) أي : – يلوم بعضهم بعضا على ما كانوا عزموا عليه من حرمان المساكين شأنهم في ذلك شأن رفاق السور الذين يتعاونون على الاثم والعدوان فإذا أصابتهم مصيبة تنصل كل من أصحابه وألقى بالتبعة عليهم (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) ولولا أنتم فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب فقالوا جميعا : – (يا ويلنا إنا كنا طاغين) أي : – ظالمين ظلما شديدا لما عزمنا عليه ثم أعلنوا التوبة والرغبة في رحمة الله فقالوا : – (عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون) قال تعالى مذكرا قريشا وغيرهم من الذين بدّلوا نعمة الله كفرا (كذلك العذاب) أي : – هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه ومنع الفقراء والمساكين (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) فالواجب على أهل الزروع أن يؤتوا حقها يوم حصاده ولا يبخلوا فإن البخل شؤم ومن شؤمه أن يذهب النعمة كما جرى لأصحاب الجنة بينما الصدقة خير وزكاة وبركة ولعل ما يبين بركة الصدقة هذا الحديث الذي كاد أن يحكي حال والد أصحاب الجنة قبل موته عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : – " بينا رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتا في سحابة اسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماؤه في حرة فإذا سرجة من تلك السراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحوّل الماء بمسحاة فقال له : – يا عبد الله ما اسمك قال : – فلان للاسم الذي سمع في السحاب فقال له : – يا عبد الله لم تسألني عن اسمي فقال : – إني سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول : – اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها ؟ قال : – أما إذا قلت هذا فإن أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثله وآكل أنا وعيالي ثلثا وأرد فيها ثلثا " ولما ذكر الله تعالى حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله عز وجل وخالفوا أمره أتبعها بذكر جنة الآخرة التي لا تفنى ولا تبيد فقال تعالى : – (إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم) ولقد كان المشركون حين يسمعون النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الجنة والنار يقولون : – نحن أولى بالجنة من محمد وأصحابه وعلى أسوء تقدير إن دخلوا الجنة فهم شركاؤنا فيها فقال الله تعالى : – (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) أي : – " أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء كما قال تعالى : – (أم نجعل الذين ءامنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) وكما قال تعالى : – (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين ءامنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون) ما لكم كيف تحكمون ماذا بكم وعلى ما تبنون أحكامكم (أم لكم كتاب فيه تدرسون إن لكم فيه لما تخيرون) هل عندكم كتاب من الله فأنتم تدرسون فيه أن لكم لما تخيرون من نعيم الجنة أي : – أمعكم عهود ومواثيق من الله أن يكون لكم في الآخرة ما تشتهون فأنتم واثقون أن الله لا ينقض عهدا ولا يخلف وعدا (سلهم أيهم بذلك زعيم) وليس عندهم من هذا شيء فليس عندهم كتاب ولا معهم عهد وإنما هي الأماني الكاذبة التي ينميها أو يؤملهم إياها الشيطان كما قال تعالى : – (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) (أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) فقد فصّل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية تفسيرا رائعا فأخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : – قلنا يا رسول الله : – هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : – " هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كان صحوا قلنا : – لا قال : – فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارون في رؤيتهما ثم قال : – ينادي مناد ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم وأصحاب الاوثان مع أوثانهم وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر وغدرات من أهل الكتاب ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب فيقال ليهود : – ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : – نعبد عزيرا ابن الله فيقال كذبتم لم يكن لله

صاحبة ولا ولد فما تريدون قالوا نريد أن تسقينا فيقال : – اشربوا فيتساقطون في جهنم ثم يقال للنصارى : – ما كنتم تعبدون فيقولون كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال : – كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد فما تريدون ؟ فيقولون : – نريد أن تسقينا فيقال : – اشربوا فيتساقطون حتى يبقى من كان يعبد الله من بر أو فاجر فيقال لهم : – ما يحبسكم وقد ذهب الناس ؟ فيقولون : – فارقناهم ونحن أحوج منا إليهم اليوم وإنا سمعنا مناديا ينادي ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون وإنما ننتظر ربنا قال : – فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة فيقول : – أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فلا يكلمه إلا الانبياء فيقول : – هل بينكم وبينه آية تعرفونه فيقولون : – الساق فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقا واحدا جزاء وفاقا ولا يظلم ربك أحدا ذلك أنهم كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون فلا يسجدون إلا رياء وسمعة " .

وقوله سبحانه : – (فذرني و من يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) يقول سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم : – خل بيني وبينهم يا نبينا فإنهم أعدائي كما أنهم أعداؤك فاتركهم لي سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ومن الاستدراج أن يوسع الله عليهم في الدنيا ويبسط لهم في الرزق ، يكثر أموالهم وأولادهم فيغترون بذلك فيقولون : – لولا أن الله عنا راض ما أعطانا فيقيمون على كفرهم ويفرحون بما أوتوا ولا يزالون كذلك حتى يأخذهم الله وإذا قال تعالى : – (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين) (وأملي لهم إن كيدي متين) أي : – أؤخرهم وأنظرهم وأمدهم وذلك من كيدي ومكري بهم وكيدي متين أي : – عظيم لمن خالف أمري وكذب رسلي واجترأ على معصيتي ، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : – " إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) " ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : – (أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون) أي : – لماذا لا يتبعونك ولماذا لا يقبلون دعوتك ؟ هل كلفتهم من الأموال ما لا يملكون فانصرفوا عنك ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ ليس الأمر كذلك ، لم يسألهم النبي أجرا ولم يطلعوا الغيب فلم يبق إلا التكذيب والعناد وإذ الأمر كذلك فاصبر يا نبينا لحكم ربك ولا تستعجل ولا تعجل عليهم واصبر كما صبر الأنبياء والرسل من قبلك (ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم) وهو يونس عليه السلام وقد غضب على قومه بسبب كفرهم به وتكذيبهم إياه فخرج من بينهم مهاجرا دون إذن مولاه فعتب الله تبارك وتعالى عليه فالتقمه الحوت وهو مليم (فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) .

وفي الختام يوضح الله تبارك وتعالى موقف الكافرين من نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول : – (و إن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر) أي : – كادوا أن يحسدوك ويختاروا لك منهم من هو معروف بعينه المؤثرة فيحسدك لتقتل أو تموت فيرتاحون منك ولكن الله سلّم وحفظ نبيه صلى الله عليه وسلم ورد كيد الحاسدين الكائدين في نحورهم (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكر للعالمين) .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الاجمالي

المحاضرة الرابعة

تفسير سورة الحاقة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلـــى آلـــه وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكـــل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير : -

سورة الحاقة

وهي سورة مكية : - شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة وتثبيت الإيمان ولكنها تركز على المكذبين بيوم الـــدين فتذكر مصارعهم في الدنيا وجزاؤهم في الآخرة كما تتحدث عن أهوال يوم القيامة وحال السعداء فيه والأشقياء وتختم بالحديث عن القرآن والنبي الذي نزل عليه وأنه ليس له فيه إلا التبليغ (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) .

استفتحت السورة الكريمة : - بذكر اسم من أسماء يوم القيامة وحال المكذبين بالقيامة في الدنيا وكيف أخذهم الله تبارك وتعالى أخذة رابية ، أما قول الله تبارك وتعالى : - (الحاقة) فالحاقة : - اسم من أسماء يوم القيامة سمي به لأن فيه يتحقـــق الوعـــد والوعيد ففي يوم القيامة توفى كل نفس ما عملت وتجزى كل نفس بما كسبت ويتحقق وعد الله لأوليائه بالجنة ووعيده لأعدائه بالنار ، ولما كان موضوع السورة الكريمة هو القيامة وأهوالها وأحوال الناس فيها سميت السورة باسم من أسماء يوم القيامة وهو اسم الحاقة .

(ما الحاقة) سؤال للتفخيم والتعظيم كما يقال عن الرجل إذا أريد تعظيم حاله من علم أو نحوه : - فلان ما فلان .

(وما أدراك ما الحاقة) أي :- ما أعلمك بها وبأهوالها ، وأنت لم ترها ، ولا يأتي جواب لهذين السؤالين وإنما يتركان هكـــذا بـــدون جواب ليذهب العقل في معرفة الجواب كل مذهب .

(كذبت ثمود وعاد بالقارعة) والقارعة : - أيضا اسم من أسماء يوم القيامة سمي به لأن هوله يقرع الآذان ويزعج الإنسان ، وثمود : - هم قوم صالح وكانوا يسكنون الحجر بين بلاد الشام وبلاد الحجاز ، وأما عاد : - فهم قوم هود وكانوا يسكنون حضرموت باليمن فهم إذن معروفون لأهل مكة الذين يخاطبهم القرآن والذين كذبوا بالقارعة التي كذبت بها ثمود وعاد فليتأملوا في مصيرهم وليرجعوا عن تكذيبهم خشية أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم عاد وثمود .

(فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) وهي : - الصيحة التي طغت على كل الصيحات فتركت القوم كهشيم المحتضر .

(وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر) أي : - باردة (عاتية) أي : - شديدة الهبوب عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة .

(سخرها عليهم) أي : - سلطها الله تبارك وتعالى عليهم (سبع ليال وثمانية أيام حسوما) أي : - متتابعة (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) فكانت الريح تحمل الرجل إلى السماء ثم ترمي به إلى الأرض على أم رأسه فينفصل رأسه عن جسده فيبقى الجسد من غير رأس حتى تحسبه جذع نخلة لا رأس لها كما قال تعالى في سورة القمر : - (كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر إنـــا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) ولقد أرسلت هذه الريح أولا على أهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم فجعلتهم بين السماء والأرض فلما رأى ذلك أهل الحاضرة قالوا هذا عارض ممطرنا فألقت أهل الباديـــة

ومواشيهم على أهل الحاضرة فأهلكتهم أجمعين فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ولذا قال تعالى هنا : - (فهل ترى لهم من باقية) هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .
(وجاء فرعون) وهو ذلك الحاكم الظالم الطاغية من حكام دولة الفراعنة القدما ء في مصر (ومن قبله) من الأمم المكذبة ، والله سبحانه وتعالى يسمي من يشاء من الأمم ويبهم من يشاء (والمؤتفكات) وهي قرى قوم لوط جمع مؤتفكة كما قال تعالى : - (والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى)
(وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة) وهي : - الذنب العظيم الذي هو تكذيب رسلهم كما فسره سبحانه وتعالى بعد بقوله : - (فعصوا رسول ربهم) يعني : - إن فرعون عصى رسول ربه ومن قبلهم من الأمم عصوا رسول ربهم وقوم لوط عصوا رسول ربهم (فعصوا رسول ربهم) ومعلوم أن رسول فرعون غير رسول من قبله وغير رسول الؤمتفكات ولكن لما كانت الرسالة واحدة فحملتها وإن كثروا رسول واحد فمن كذب واحدا منهم فقد كذب جميعهم ولذا قال تعالى : - (كذبت قوم نوح المرسلين) (كذبت ثمود المرسلين) (كذبت عاد المرسلين) ومعلوم أن كل أمة من هذه الأمم كذبت رسولا واحدا وهو الذي بعث إليها ولكن كان تكذيبهم له تكذيبا لجميع المرسلين لما ذكرناها من أن أصل الرسالة واحد فمن رد على رسول دعوته ولم يقبل رسالته فقد رد الرسالة على جميع الرسل ومعلوم من الدين أن الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله فمن فرق بين الرسل فزعم الإيمان ببعضهم وكفر بالبعض الآخر فهو كافر بهم جميعا كما قال تعالى : - (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا) .

وقوله تعالى : - (فأخذهم أخذة رابية) أي : - زائدة قوية شديدة ، وقد فصل الله سبحانه وتعالى كيف كانت أخذة كل قوم فقال : - (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من غارقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .
وقوله تعالى : - (إنا لما طغى الماء) أي : - زاد على الحد والمراد بالماء ماء الطوفان الذي أغرق الله به قوم نوح كما قال تعالى : - (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر) وهو إهلاك القوم وإغراقهم ، فلما طغى الماء وعم الوجود حملناكم في الجارية وإنما خاطب الحاضرين ولم يكونوا موجودين يومئذ لأنهم كما قال تعالى : - (ذرية من حملنا مع نوح) وإذ هم كذلك فإن في إنجاء آبائهم إنجاء لهم فالإحسان إلى الآباء إحسان إلى الأبناء فخاطبهم تذكيرا لهم بهذه النعمة ليشكروه عليها والجارية هي السفينة وجمعها جواري كما قال تعالى : - (ومن آياته الجواري في البحر كالأعلام) وكانت هذه السفينة أول سفينة يعرفها الناس صنعها نوح عليه السلام بأمر به ولذا قال تعالى : - (لنجعلها لكم تذكرة) أي : - لنجعل جنس السفن تذكرة لكم بالسفينة الأولى التي أنجى الله فيها نوحا ومن معه كما قال تعالى : - (وآية لهم أنى حملنا لهم ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) .
وقوله تعالى : - (وتعيها أذن واعية) أي : - وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن تعي ما تسمع وتنتفع به كما قال سبحانه : - (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .
ولما عرض الله سبحانه وتعالى على الناس مصارع المكذبين بيوم الدين في الدنيا انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الآخرة وأهوالها وانقسام الناس فيها قسمين أصحاب اليمين وهم أهل الجنة وأصحاب الشمال وهم أهل النار .
فقال سبحانه : - (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة) الصور خلق عظيم مثل البوق وقد ذكر في القرآن الكريم وثبت في السنة أن الله قد وكّل به ملكا من الملائكة المقربين وهو اسرافيل عليه السلام

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن ذلك الملك قد أخذ أهبة الاستعداد للنفخ فقال صلى الله عليه و سلم : – " كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ ، فكأن ذلك ثقل على أصحابه فقالوا : – فكيف نفعل يا رسول أو نقول ؟ قال : – قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا " .

والنفخ مرتان : –

١) نفخة الإماتة .

٢) ونفخة الإحياء .

قال تعالى : – (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظـــرون) وبيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن بين النفختين أربعين ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : – قال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم : – " ما بين النفختين أربعون ، قيل : – أربعون يوما قال أبو هريرة : – أبيت قالوا : –أربعون شهرا قال : – أبيت قال : – أربعون سنة قال : – أبيت "

(فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة) وهي نفخة الفزع والصعق حصل بها في هذا الكون تغيّر عظيم وانقلاب كبير (فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة) أي : – قامت القيامة وهذا هو الاسم الثالث من أسماء يوم القيامة كما سمي بذلك في هذه السورة الكريمة : – الحاقة والقارعة والواقعة ، وإنما سمي بالواقعة : – لتحقق كونه ووجوده .

(وانشقت السماء) بسبب ذلك النفخة (فهي يومئذ واهية) أي : – ضعيفة بعدما كانت شديدة قوية محكمة محبكة كما قال تعالى : – (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا السماء منفطر به كان وعده مفعولا) فإذا السماء انفطرت وانشقت بسبب هذه النفخة فكيف بكم أنتم معشر الناس .

وقوله تعالى : – (والملك على أرجائها) يعني : – إذا انشقت السماء قامت الملائكة على حافاتها وفجاجها وطرقاتها يردون الشــــارد ويدفعون الهارب (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) من الملائكة ، حدّث النبي صلى الله عليه وسلم عن عظمة خلقه فقال : – " أذن لي أن أحدث عن ملك من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام " وقوله تعالى : – (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) أي : – يومئذ تعرضون على الملك الكبير المتعال كما قال تعالى : – (وعرضوا على ربك صفا) .

(لا تخفى منكم خافية) فالكل مكشوف الجسد وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار وتتعرى النفوس وتعرى الأجســـاد وتبرز الغيوب بروز الشهود ويتجرد الانسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره ويفتضح منه ما كان حريصا أن يســـتره حتى عن نفسه فاللهم استرنا بسترك يوم تبلى السرائر .

فإذا عرض العباد على الله سبحانه وتعالى كانوا فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير (فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه فهو في عيشة راضية في جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأمان الخاليـــة) والمراد بالكتاب كتاب الأعمال ولكل إنسان كتاب كما قال تعالى : – (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) فلكل عبد كتاب يسجل فيه أعماله وأقواله فإذا مات طوي وجعل معه في عنقه فإذا حشر العباد تطايرت هذه الكتب حتى يقع كل كتاب في يد صاحبه فآخذ كتابه بيمينه فناج وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره فهالك ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول لكل من لقيه من أهل الموقف (هاؤم اقرءوا كتابه) وذلك لاعتقاده أنه ليس في الكتاب ما يسوءه (إني ظننت أني ملاق حسابيه) أي : – كنت على يقين أنني محاسب بعملي ومجزي به فاتقيت المحارم واجتهدت في طاعة الله عز وجل حسب استطاعتي فالظن ، هنا بمعنى اليقين لأن الظن الذي هو بمعنى الشك لا يسمن ولا يغني من جوع .

قال تعالى في بيان جزاء صاحب اليمين (فهو في عيشة راضية) أي : – مرضية يرضى عنها ولا يبغي عنها حولا .

(في جنة عالية) أي : – رفيعة قصورها حسان صورها نعيمة دورها دائم حضورها . (قطوفها دانية) كما قـــال تعـــالى : – (متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان) وقال تعالى : – (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا) ومع هـــذا النعيم الحسي فالملائكة يدخلون عليهم من كل باب يقولون لهم (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) بمعنى : – (إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) والمراد بالأيام الخالية : – الماضية وهي أيام الدنيا وهكذا يحدثنا الله تعالى عن الدنيا ونحن مازلنا فيها يحدثنا عنها بلفظ الماضي لأن زوالها قريب وهو متحقق فهو يحدثنا عنها وكأنها قد زالت فعلا وكأن أهل الجنة قد تبـــوؤوا منازلهم فيها وكأن أهل النار قد تبوؤوا منازلهم فيها حتى لا يطول بالإنسان أمل فيقعده عن خير العمل ، وقد أخرج البيهقي عن نافع قال : – خرج ابن عمر في بعض نواحي المدينة ومعه أصحاب له ووضعوا سفرة لهم فمر بهم راعي غنم فسلم فقال ابن عمر : – هلم يا راعي فهلم فأصب من هذه السفرة فقال الغلام : – إني صائم فقال ابن عمر : – أتصوم في مثل هذا اليوم الحار الشديد صـــومه وأنت في هذه الجبال ترعى هذه الغنم فقال : – إني والله أبادر أيامي الخالية فقال له ابن عمر : – وهو يريد أن يختبر ورعه : – فهـــل لك أن تبيع لنا شاة من غنمك هذه فنعطيك ثمنها ونعطيك من لحمها فتفطر عليه فقال : – إنها ليس لي بغنم إنها غنم سيدي فقال ابن عمر : – فما عسى سيدك فاعلا إذا فقدها فقلت : – أكلها الذئب فولى الراعي عنه وهو رافع اصبعه الى السماء وهو يقول : – فأين الله قال : – فجعل ابن عمر يردد قول الراعي وهو يقول : – قال الراعي : – فأين الله ، فلما قدم المدينة بعث إلى مولاه فاشترى منه الغنم والراعي فأعتق الراعي ووهب منه الغلام . فهنيئا لمن حاسب نفسه قبل يوم الحساب كما قال عمر رضي الله عنه : – " حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا فإنه أخف عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعـــرض الاكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية " .

عن صفوان قال : – كنت آخذا بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال : – كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وســـلم يقـــول في النجوى يوم القيامة قال : – سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : – " إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك قال : – سترته عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسنات " .

(وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه) فما كان يظن يوما أنه محاسب بأعماله كما قال تعالى : – (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا إنه كان في أهله مسرورا إنه ظن أن لن يحور) أي : – كـــان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله وأن الله لن يعيده بعد موته فلما رأى ما لم يحسب حسابه لم يجد إلا أن يتمنى الموت بعد أن كان الموت أكره إليه من كل شيء فقال : – (يا ليتها كانت القاضية) التي تنهي وجوده أصلا فلا يعود بعدها شيئا ، ثم تحسر على عدم انتفاعه بماله وجاهه فقال : – (ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه) وهذه حقيقة طالما ذكّر بها القرآن الأثرياء والوجهاء ولكنـــهم نســـوها أو تناسوها قال تعالى : – (إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار) وقال تعالى : – (وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغني عنه ماله إذا تردى) وقال تعالى : – (وما أمـــوالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون) ومـــن دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام : – (ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) وأما قوله : – (هلك عني سلطانيه) فقد يراد بالسلطان : – الجاه فيكون تحسرا على عدم انتفاعه بجاهه في هذا اليوم العصيب وهذه أيضا حقيقة طالما نبه عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقد كان يهل بعد الصلاة بهذه الكلمات : – " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد " والجد : – هو الحظ والغنى والعظمة والسلطان ، أي : – لا ينفع ذا الحظ في الدنيا بالمال والولد والعظمة والسلطان منك يوم القيامـــة حظـــه أي : – لا

ينجيه حظه منك وإنما يدفعه وينجيه العمل الصالح ، وقد يراد بالسلطان الحجة والبرهان فيكون المعنى (هلك عني سلطانيه) أي : - بطلت حجتي وضاع برهاني وثبت خطئي كما قال تعالى : - (والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب لهم حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد) .

وبينما تنطلق منه هذه الحسرات في أسى وحزن إذ قرع سمعه صوت الجبار سبحانه وهو يقول لزبانية النار (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) وما أن يقول الجبار : - خذوه حتى يبتدره سبعون ألف ملك الملك منهم لو قال بجناح من أجنحته هكذا ألقى به سبعين ألفا في النار فيجعلون الأغلال في عنقه ثم يسلكونه في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا وكان ذراع واحد يكفيه فتسلك في دبره حتى تخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه .

ثم بين الله سبحانه وتعالى السبب الذي هلك به ذلك الكافر وذلك الإنسان الذي أوتي كتابه بشماله فقال سبحانه : - (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين) فلم يحسن فيما بينه وبين الله ولم يحسن فيما بينه وبين عباد الله ، وشرط النجاة في الآخرة أن يحسن العبد فيما بينه وبين الله تعالى وذلك بالإيمان به وطاعته بفعل ما به أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن يحسن فيما بينه وبين الناس ببرهم وإيصال الخير إليهم وكف الأذى والشر عنهم قال الله تعالى : - (إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) ثم فصل إحسانهم فقال : - (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون) وهذا إحسانهم فيما بينهم وبين الله ثم قال : - (وفي أموالهم حق للسائل والمحروم) وهذا إحسانهم فيما بينهم وبين عباد الله ولذا وصّى النبي صلى الله عليه وسلم بعموم هذا الإحسان فقال : - " اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن " ، فتقوى العبد ربه عنوان إحسانه فيما بينه وبين الله وخلقه الحسن مع الناس عنوان إحسانه فيما بينه وبين الناس ، فهذا الخاسر الهالك صاحب الشمال كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فأساء فيما بينه وبين الله كما أساء فيما بينه وبين الناس (فليس له اليوم هاهنا حميم) أي : - قريب أو صديق ينفعه أو يشفع له كما قال تعالى : - (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) وليس له اليوم هاهنا طعام إلا من غسلين وهو ما يسيل من جراحات أهل النار من الدم والقيح والصديد وهذا الطعام الخبيث لا يأكله إلا الخاطؤون أي : - المذنبون الذين جاءوا بالخاطئة .

وبعد ، فذلك هو الذي يجعله الله تعالى مستحقا للأخذ والغل والتصلية وأن يسلك في السلسلة التي ذرعها سبعون ذراعا في الجحيم وهو أشد دركات جهنم عذابا فكيف بمن يمنع طعام المسكين ومن يجيع الأطفال والنساء والشيوخ ومن يبطش بطشة الجبارين بمن يمد إليهم يده باللقمة والكساء في برد الشتاء .

أين ترى يذهب هؤلاء وهم يوجدون في الأرض بين الحين والحين وما الذي أعده الله لهم وقد أعد لمن لا يحض على طعام المسكين ذلك العذاب في الجحيم ؟ .

ثم تختم السورة الكريمة : - ببيان أن هذا القرآن الكريم كلام رب العالمين وليس كلام محمد صلى الله عليه وسلم كما هو قول الكافرين الظالمين يقول تعالى : - (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم) إن القرآن الكريم : - كلام الله رب العالمين نزل به الروح الأمين فعلمه سيد المرسلين وهذه الحقيقة طالما كررها القرآن ردا على الذين قالوا : - (أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) وهو هنا يؤكد هذه الحقيقة بالقسم (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقول رسول كريم) يعني : - النبي محمدا صلى الله عليه وسلم وأضافه إليه على معنى التبليغ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين) وقد كان المشركون كما وصفهم الله عز وجل مختلفين في أمر النبي صلى الله عليه وسلم غير متفقين على كلمة يقولونها في حق فتارة يقولون شاعر وتارة

يقولون ساحر وتارة يقولون كاهن وتارة يقولون مجنون فقال تعالى : – (والسماء ذات الحبك إنكم لفي قول مختلف) وقال سبحانه : – (بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج) فبرأ الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم مما قالوا فقال هنا : – (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) وقال في سورة الطور : – (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) ولقد كانت هاته الآيات من جملة الأسباب التي جعلها الله تبارك وتعالى مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد روي عنه أنه قال : – خرجت أتعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب من تأليف القرآن فقلت هذا والله شاعر كما قالت قريش فقرأ (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون) فقلت كاهن فقرأ (ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) إلى آخر السورة قال عمر : – فوقع الاسلام في قلبي كل موقع .

وقوله تعالى : – (ولو تقول علينا بعض الأقاويل) يعني : – لو زاد محمد على ما أوحيناه إليه شيئا أو نقص (لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) فمات لأن الوتين : – عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه ولو فعل الله ذلك بنبيه ما منعه أحد ولذلك قال : – (فما منكم من أحد عنه حاجزين) وهذا التهديد قد تضمن شهادة الله لنبيه بالأمانة على ما أوحى إليه وأنه بلغه بكل دقة بلا زيادة ولا نقصان .

والدليل على ذلك : – أن الله عز وجل لم يفعل لنبيه شيئا من هذا الوعيد المذكور في هذه الآية فدل عدم تحقيق الوعيد على أنه لم يتقوّل ، وقوله تعالى : – (وإنه لتذكرة للمتقين) يعني : – القرآن وإنما خص المتقين بالذكر لأنهم الذين ينتفعون به .

(وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) أي : – مع هذا البيان ووضوح الآيات وظهور البراهين على أن القرآن كلام الله رب العالمين إلا أننا نعلم أن منكم مكذبين بالقرآن (وإنه لحسرة على الكافرين) فإنه إذا كان يوم القيامة ورأوا ما وعده به تحسروا إذ لم يهتدوا به ولم ينقادوا له وقوله تعالى : – (وإنه لحق اليقين) يعني : – وإن كذب به المكذبون فهو حق اليقين وليس مجرد اليقين (فسبح باسم ربك العظيم) ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ، ولقد سبح النبي صلى الله عليه وسلم باسم ربه وحث أمته على التسبيح وكان يقول : – " كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : – سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم " .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الاجمالي

المحاضرة الخامسة

تفسير سورة المعارج

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اللهم صلي وسلم و بارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

ثم إننا في هذا الدرس على موعد مع تفسير : -

سورة المعارج

وهي سورة مكية : - تتحدث عن اليوم الآخر وما فيه من عذاب للكافرين الذين كانوا يستعجلونه لشدة تكذيبهم به وإن كانت سورة الحاقة تحدثت عن أهل اليوم الآخر وإن كانت سورة الحاقة تحدثت عن أهوال اليوم الآخر وما يحدث من تغيرات كونية فإن هذه السورة تتحدث عن نفس الأهوال وما تحدثه من جزع وفزع في النفوس البشرية كما تتحدث السورة أيضا عن النفس البشرية وحالها في الضراء والسراء

ثم تختم السورة الكريمة : - بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن المكذبين وإمهالهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون (يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) .

يقول تعالى : - (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع) كان المشركون لشدة تكذيبهم بيوم الدين وما لهم فيه من العذاب المهين يستعجلون هذا العذاب ويسألون الله تعالى أن يعجله لهم في الدنيا قبل الآخرة وقد ذكر الله سبحانه وتعالى استعجالهم هذا في أكثر من آية وأخبرهم أن العذاب واقع بهم لا محالة وأنه لا يمنعه عنهم إلا كلمة سبقت من الله وأجل مسمى سماه الله تعالى لهم ، قال تعالى : - (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) وقال تعالى : - (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقال تعالى : - (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون) (يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) وبين الله سبحانه وتعالى أن استعجالهم هذا راجع إلى جهلهم بحقيقة عذاب الله ولو علموها ما استعجلوه فقال سبحانه : - (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) .

فقوله تعالى هنا : - (سأل سائل بعذاب واقع) أي : - سألوا استعجال العذاب والعذاب لا محالة بهم واقع (للكافرين ليس له دافع) أي : - لا دافع له ولا راد إذا أراد الله وقوعه (من الله ذي المعارج) في تقييد هذا العذاب الواقع بالكافرين بكونه من الله إشارة إلى أنه عذاب شديد وعذاب أليم وعذاب عظيم لأنه من الله القائل : - (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد) والقائل : - (إن بطش ربك لشديد) (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد)

(من الله ذي المعارج) أي : - ذي الدرجات كما قال تعالى : - (رفيع الدرجات ذو العرش) .

(تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) الروح قد يكون المراد به : - جبريل عليه السلام كما قال تعالى : - (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين) يعني : - جبريل وعروج جبريل والملائكة واضح وهو أنهم ينزلون بأمر من الله ثم

يعرجون إليه كما يتنزلون في ليلة القدر حتى مطلع الفجر ثم يعرجون وقد يكون المراد بالروح روح الميت حين تقبضها الملائكة فإنهم يعرجون بها إلى السماء فيستفتحون فيفتح للمؤمن ولا يفتح للكافر .
كما بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في حديث البراء بن عازب في صفة قبض الأرواح ، وأما اليوم المذكور في الآية الكريمة فهو يوم القيامة فقد وردت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن يوم القيامة : – مقداره خمسون ألف سنة ففي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : – " ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار " .
وفي قوله سبحانه وتعالى : – (تعرج الملائكة والروح إليه) دليل على علوه سبحانه وتعالى فوق خلقه كما أخبر عن نفسه سبحانه وتعالى ووصف نفسه بالعلي بالأعلى ووصف نفسه بالفوقية وبالاستواء على العرش ، فكل هذا مما يدل على معتقد أهل السنة والجماعة أن الله تعالى في السماء على العرش استوى .
وقوله سبحانه : – (فاصبر صبرا جميلا) أي : – اصبر يا نبينا على تكذيب قومك لك واستعجالهم العذاب استبعادا لوقوعه فاصبر صبرا جميلا وهو الصبر الذي لا يصحبه سخط ولا قلق ولا شك وإنما صبر يصحبه الرضا والطمأنينة والثقة ، وقد كثر في القرآن الكريم أمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر وذلك أن الصبر زاد الداعية فإذا نفد قعد عن الدعوة وهجر قومه فعلى الدعاة أن يتحلوا بالصبر وأن يتخلوا عن الاستعجال وأن يعلموا أن الدعوة دعوة الله ونتائجها بيده وليس بلازم أن يرى الداعية نتيجة جهده ولا أن يجني ثمرة سعيه فهو مكلف بالدعوة والتبليغ فعليه أن يؤدي ما كلف به وأن يترك الأمور بعد ذلك يدبرها الله سبحانه وتعالى كيف يشاء .
(إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) يعني : – إن الكفرة يرون العذاب بعيد الوقوع بمعنى المستحيل والله عز وجل الذي سيعذبهم يراه قريبا وهو سبحانه وتعالى أعلم ، ثم ذكر سبحانه وتعالى أهوال يوم القيامة الذي يقع فيه العذاب بالكافرين فقال : – (يوم تكون السماء كالمهل) أي : – كالزيت في ساعة الغليان وذلك لبلوغ الهول منها كل مبلغ .
(وتكون الجبال كالعهن) أي : – كالصوف المنفوش كما قال تعالى : – (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) .
(ولا يسأل حميم حميما) يعني : – يومئذ لا يسأل قريب قريبه عن حاله ولا يسأل صديق صديقا وحتى لا يظن أن عدم السؤال إنما كان لعدم الرؤية قال تعالى : – (يبصرونهم) أي : – يرى الصديق صديقه ويرى القريب قريبه ولا يسأل الصديق صديقه عن حاله ولا يسأل القريب قريبه عن حاله ولكن الناس كلهم قد انشغل كل منهم بنفسه كما قال تعالى : – (فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) فالكل قد أتاه ما يشغله والكل يقول نفسي نفسي وإذا قال تعالى : – (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) وقال تعالى : – (وإن تدعوا مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء و لو كان ذا قربى) وقال هنا : – (يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه) فلم يقتصر الأمر على فرار الأقارب بعضهم من بعض ولم يقتصر الأمر على انشغال الوالد بنفسه عن ولده والمولود عن والده بل بلغ الأمر حدا لا يتصور حيث يود المجرم وهو مرتكب الجريمة ، والجريمة هنا : – هي الكفر وما دونه من الذنوب فإن الله تبارك وتعالى قد قابل المسلمين بالمجرمين في قوله : – (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) وقال تعالى : – (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر) فالمجرم هنا : – الكافر الفاجر يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه الذين كان في الدنيا يفتدي ظفر أحدهم بروحه صار اليوم يود لو يفتدي نفسه من عذاب الله ببنيه جميعا بل وبمن في الأرض كلهم ولكن هيهات هيهات فهذا يوم لا يقبل فيه الفداء كما قال تعالى : – (فاليوم لا يؤخذ

منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير) وقال هنا : – بعد ذكر تمني المجرم الفداء (كلا) أي : – لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض وبأعز ما يجده من الأولاد ولو جاء بملأ الأرض ذهبا .

ثم قال تعالى واصفا النار التي تنتظر الكافرين : – (إنها لظى) سميت بذلك : – لأنها تلظى أي : – تتوقد وتتوهج كما قال تعالى : – (فأنذرتكم نارا تلظى) .

(نزاعة للشوى) أي : – تنزع الجلود عن الوجوه والرؤوس نزعا .

(تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى) أي : – تنادي النار على كل من أدبر عن الهدى وتولى عن داع الخير تناديه النار يوم القيامة فيقبل عليها ويجيب دعاءها ولا يستطيع أن يدبر ولا يستطيع أن يتولى ، ولقد كان جمع المال فأوعاه ولم يؤدي حق الله واليوم لا يغني عنه ماله من الله شيئا كما قال تعالى : – (إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار) وقال تعالى : – (وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغني عنه ماله إذا تردى) وقال تعالى : – (تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب) .

ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن الإنسان : – وما جبل عليه من الأخلاق الذميمة والصفات القبيحة التي إن لم يعمل على تزكية نفسه منها خاب وخسر ، خسر الدنيا والآخرة فقال تعالى : – (إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) يقول تعالى مخبرا عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة : – (إن الإنسان خلق هلوعا) ثم فسر الهلع بقوله : – (إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) ومعناه : – أنه إذا مس هذا الإنسان شيء من الشر عظم في نفسه وكأنه مصيبة المصائب فضاقت به الدنيا وانقطع رجاؤه وظن أن ما نزل به ليس له دافع فقعد محسورا وإذا مس الإنسان شيء من الخير أوعاه وأحصاه وعدده فلم ينفق منه شيئا مخافة النفاذ وهاتان الصفتان شر ما في الرجل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : – " شر ما في الرجل شح هاجع وجبن خالع " والشح الهاجع أي : – الجازع الذي يحمل على الحرص على المال والجزع على ذهابه والجبن الخانع أي : – الشديد كأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه .

وأخبر صلى الله عليه وسلم أن هذه الصفات لا تجتمع هي والإيمان في قلب واحد فقال صلى الله عليه وسلم : – " لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدا ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا " .

ولما ذكر الله تبارك وتعالى ما جبل عليه الإنسان من الأخلاق الدنيئة والصفات القبيحة أرشد سبحانه وتعالى الإنسان إلى وسائل التزكية التي تزكي نفسه من هذه الأخلاق الدنيئة والصفات القبيحة وتطهرها وتحليها بمكارم الأخلاق وجميل الصفات وهذه التزكية قد علق الله تبارك وتعالى عليها الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة قال تعالى : – (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) .

وقال تعالى مبينا جزاء من تزكى في الآخرة ومن لم يتزكى : – (إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحي ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) فلا بد من التزكية : – وهي التخلي عن الصفات القبيحة والأخلاق الدنيئة والتحلي بمكارم الأخلاق وجميل الصفات .

ومما يعين بل ومن أعظم وسائل هذه التزكية المحافظة على الصلاة ولذلك استثنى الله تبارك وتعالى مما ذكر المصلين فقال : – (إلا المصلين) (إن الانسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين) يعني : – فإنهم ليسوا كذلك ولكن ليس كل المصلين بل بعضهم ولذا قال : – (إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون) . قيل : – معناه يحافظون على الصلاة ، يحافظون على أوقاتها وواجباتها .

وقيل : – المراد السكون والخشوع كقوله تعالى : – (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) وهذا يدل على وجوب الطمأنينة في الصلاة فإن الذي لا يطمئن في ركوعه وسجوده ليس بدائم على صلاته لأنه لم يسكن فيها ولم يدم بل ينقرها نقر الغراب .
وقيل : – المراد بذلك الذين إذا عملوا عملا داوموا عليه وأثبتوه كما جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : – " أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل قالت : – وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عمل عملا داوم عليه .
وقوله تعالى : – (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) فهذه هي : – الوسيلة الثانية من وسائل تزكية النفس ، إيتاء الزكاة كما قال تعالى : – (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) وإنما سميت الزكاة : – زكاة لأنها تطهر نفس الغني من البخل والشح وتطهر نفس الفقير من الحقد والحسد على الغني ، فالذين يريدون وجه الله والذين يريدون النجاة علموا أن المال مال الله وهم أمناء عليه فأدوا حق الفقراء فيه سألوا أم لم يسألوا والسائل هو الذي يتعرض للناس يسألهم من فضل الله والمحروم هو الذي يتعفف عن السؤال ولا يريق ماء وجهه (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا) فالذين يريدون تزكية أنفسهم لا ينسون ولا يغفلون عن هؤلاء الفقراء المساكين المتعففين الذين لا يسألون الناس إلحافا بل يسألون هم عنهم ويبحثون عنهم ويوصلون إليهم حقهم لأنهم علموا أن الزكاة حق الفقراء في مال الله عز وجل .
ومن وسائل التزكية التصديق بيوم الدين : – اليقين الجازم على أنك إلى الله راجع وبين يدي الله موقوف وأمام الله مسؤول فمن علم أنه إلى الله راجع وبين يدي الله موقوف وأمام الله مسؤول فعل ما به الله أمر وترك ما نهى عنه وزجر لأنه يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) أي : – خائفون وجلون ، فالذين يؤمن بالقيامة ويؤمن بأنه ليس عند الله دار إلا الجنة أو النار هذا الإنسان تراه سريعا في طاعة الله بطيئا عن معصيته بخلاف الآخر الذي لا يؤمن بالقيامة ولا يؤمن بالجنة والنار فالأول سريع في طاعة الله سريع إلى الصدقة والنفقة في سبيل الله سريع إلى إطعام الفقراء والمساكين واليتامى كما قال تعالى : – (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا فوقاهم الله شر ذلك اليوم و لقاهم نظرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) أما الذي لا يؤمن بالقيامة ولا يؤمن بالحساب والجزاء فهو كما وصفه الله تعالى (أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) فمن أعظم وسائل تزكية النفس تقوية اليقين على لقاء الله عز وجل ، تقوية الإيمان على الوقوف بين يدي الله تبارك وتعالى للسؤال كما قال عز وجل : – (وقفوهم إنهم مسؤولون) .
(والذين يصدقون بالدين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون إن عذاب ربهم غير مأمون) ومن يأمن مكر الله فهل يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ؟ .
(والذين هم لفروجهم حافظون) لفروجهم حافظون عن كل ما حرم الله سبحانه وتعالى (والذين هم لفروجهم حافظون) فلا يسمحون لأحد بالنظر إليها ولا مسها فضلا عن وطئها الوطء المحرم (إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين) فيما استمتعوا به منهن بالجماع وما دونه كما قال صلى الله عليه وسلم : – " احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك " .
(فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) أي : – فمن قضى من امرأة وطرا وهي ليست له زوجة ولا أمة فهو باغ ملوم عاد ، وفي هذه الآية تصريح بحرمة الاستمناء باليد وهو ما يعرف بالعادة السرية لأنها داخلة في قوله تعالى : – (وراء ذلك) ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أرشد الشباب إلى طرق علاج الشهوة والقضاء عليها ومقاومتها فقال : – " يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء " يعني : – إن الصوم يقي الشاب العاجز عن

مؤنة الزواج شر فرجه وشر منيه ، فأرشد صلى الله عليه وسلم العاجز عن مؤنة النكاح إلى الصوم لا غير ولو كان هذا الأمر أي : – الاستمناء جائزا لأرشدهم إليه لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز .

وقوله تعالى : – (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) أي : – يؤدون الأمانات ولا ينقضون العهود وهكذا أهل الايمان دائما وأما المنافقون فهم بخلاف ذلك كما قال صلى الله عليه وسلم : – " آية المنافق ثلاث : – إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان " وقوله تعالى : – (والذين هم بشهاداتهم قائمون) أي : – قائمون بها لله عز وجل كما أمرهم بذلك في قوله : – (وأقيموا الشهادة لله) فهم قائمون بالشهادة يؤدونها ولا يكتمونها ولا يزيدون عليها ولا ينقصون منها ولو كانت الشهادة على أنفسكم أو الوالدين والأقربين .

ثم ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآيات بما بدأها به فقال : – (والذين هم على صلاتهم يحافظون) وذلك اهتماما بالصلاة ومزيد عناية بها كما ذكر ذلك في صدر سورة المؤمنون حيث قال : – (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) وذكر صفات ثم قال : – (والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) وقال ها هنا : – (والذين هم على صلاتهم يحافظون أولئك في جنات مكرمون).

ثم قال تعالى : – منكرا على الكفار الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهم شاهدون له ولما أرسله الله به من الهدى وما أيده به من المعجزات الباهرات ثم هم مع ذلك كله فارون منه متفرقون عنه شاردون يمينا وشمالا فرقا فرقا وشيعا شيعا كما قال تعالى : – (فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) وهذه الآيات مثلها فإن الله قال : – (فمال الذين كفروا قبلك مهطعين) أي : – فمال هؤلاء الكفار الذين عندك يا نبينا مهطعين أي : – مسرعين نافذين منك (عن اليمين وعن الشمال عزين) أي : –متفرقون .

(أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم) كلا بل مأواهم جهنم التي وصفت من قبل بأنها لظى وقوله تعالى : – (إنا خلقناهم مما يعلمون) أي : – من الماء الدافق كما قال تعالى : – (ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم) وقال سبحانه : – (فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) وفي قوله تعالى : – (إنا خلقناهم مما يعلمون) تقرير للبعث بعد الموت كما قال تعالى : – (كما بدأنا أول خلق نعيده) ولذا قال تعالى في سورة الطارق بعدما أمر الانسان بالنظر في أصل خلقه : – (فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) قال تعالى : – (إنه على رجعه لقادر) ثم أقسم سبحانه وتعالى : – بربوبيته على قدرته على الذهاب بهم والإتيان بخلق جديد خير منهم فقال سبحانه : – (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) أي : – مشارق الشمس ومغاربها فإن لها كل يوم مشرقا ومغربا (إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين) اي : – وما نحن بعاجزين كما قال تعالى : – (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشأكم فيما لا تعلمون) .

وختاما يوجه الله تعالى الخطاب إلى نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول : – (فذرهم يخوضوا ويلعبوا) أي : – ذرهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون والذي قال الله عنه في مطلع السورة : – (إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا)
(يوم يخرجون من الأجداث) أي : – القبور (سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) كما قال تعالى : – (يوم يدع الداع إلى شيء نكر خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون قد تحقق ورأوه رأي العين وعلموا علم اليقين أنه وعد صدق كما قال تعالى : – (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) فأجيبوا (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الاجمالي

المحاضرة السادسة

تفسير سورة نوح

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

ثم إننا في هذا الدرس إن شاء الله تعالى على موعد مع تفسير سورة نوح عليه السلام ، فنقول وبالله تعالى التوفيق : –

سورة نوح

إن أحسن كلمة تقال : – هي كلمة الدعوة إلى الله وأحسن عمل يؤديه الانسان هو الدعوة إلى الله قال الله تعالى : – (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين) أي : – لا أحد أحسن منه قولا ، والدعوة إلى الله هي وظيفة المصطفين الأخيار من المرسلين وأتباعهم المؤمنين قال الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم : – " قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني " .

والدعوة إلى الله تعالى لها قواعد وأصول : – يجب على من أراد القيام بالدعوة أن يتعلمها أولا قبل أن يخوض غمار الدعوة كما أن عليه أن يستفيد من تجارب الدعاة قبله .

وسورة نوح عليه السلام من السور التي تضمنت شيئا من قواعد الدعوة وأصولها وشيئا من تجربة الداعية الأول نوح عليه السلام أوحى الله بها إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ليستفيد منها هو والدعاة بعده ، استفتحت السورة الكريمة ببيان مصدر الإرسال ومصدر التكليف بالدعوة فقال تعالى : – (إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) فالمرسل والمكلف بالدعوة هو الله سبحانه وتعالى وليس هناك مرسل غيره ولا يصدر التكليف بالدعوة من غير الله سبحانه .

وتتلخص رسالة نوح عليه السلام في هذا القول : – (أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) والإنذار : – هو الاعلام المتضمن التخويف والمناسب لقوم نوح إذ كانوا على شفى حفرة من النار لما وقعوا فيه من الشرك وعبادة الأصنام ، ولما كان الله تعالى لا يعذب حتى يبعث رسولا فإنه سبحانه قد بعث نوحا إلى قومه يدعوهم إلي التوحيد وينذرهم عذاب الله إن استمروا على الشرك (قال يا قومي إني لكم نذير مبين) أي : – بين النذارة ظاهر الأمر واضحه (أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون) وهكذا يجب أن تكون الدعوة ، يجب أن تكون الدعوة إلى الله تبارك وتعالى إلى عبادته وتقواه وإلى طاعة رسوله واتباعه ولا يجوز أن تكون الدعوة إلى مذهب ولا إلى رأي ولا إلى حزب ولا إلى شيخ يجب أن تكون الدعوة إلى عبادة الله ووحده وطاعة رسوله ، والذي يقرأ القرآن الكريم يجد أن الأنبياء أجمعين هم حملة راية الدعوة إلى الله قد اتفقوا على كلمة واحدة يقولها كل نبي لقومه وهي : – (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) ولم يكن هذا الاتفاق من المرسلين أنفسهم لأنهم لم يجتمعوا يوما ما ولكن لما كان المرسل واحدا والمكلف واحدا وهو الله عز وجل فقد كلف الله رسله أجمعين بالدعوة إلى شيء واحد وهو عبادة الله وحده قال الله تعالى : – (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى : – (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) أن اعبدوا

الله وحده واتقوه بفعل ما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر وأطيعوني في كل ما آمركم وأنهاكم فإني لا آمركم ولا أنهاكم إلا بـإذن الله فطاعة رسول الله طاعة لله ، كما صرح بذلك سبحانه في قوله : - (من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ثم رغبهم عليه السلام في الاستجابة فبين لهم ما لهم إذا استجابوا لهذه الدعوة واتبعوه على ما جاء به من عند الله فقال : - (يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى) أي : - ان استجبتم لي وقبلتم هذه الدعوة فعبدتم الله وحده واتقيتم سخطه وعذابه بتـرك الشرك فإن الله يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى أي : - يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الـذي اسـتوجبتموه بكفركم (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) .

وهذا ترغيب ثاني في الاستجابة ومعناه : - بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة فإنه إذا أمر الله بعذابكم وقع العذاب وليس له دافع لأن الله إذا قضى شيئا فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) .

ثم بعد أن قام نوح عليه السلام بتبليغ هذه الدعوة وتوصيل هذه الرسالة إلى قومه توجه إلى الله سبحانه وتعالى يبين موقفهم منه ومـن دعوته : - (قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت إسرارا) .

وهكذا يجب على الداعي : - أن يحمل هم الدعوة ليلا ونهارا وألا يفتر عن الدعوة ولا يقعد عنها أبدا وأن لا ييأس من النـاس وإن صرّحوا له بعدم اتباعه .

ولما هذا الاصرار من نوح عليه السلام على الدعوة وأي مصلحة يرجوها وأي مكسب يحققه وأي غاية يطمع فيها ؟

إنه والله لم يكن يطمع في شيء سوى أن يقوم بما كلفه الله به وأن يشهد ربه أنه ما قصر وأنه بلغ وهذا هو الذي يملكه ولا يملك قلوب الناس ومع أنهم كانوا يفرون منه إلا أنه كان دائما يتحين الفرص فيغشاهم في مجالسهم فإذا فاجئهم جعلوا أصابعهم في آذانهم والأذن لا تتحمل أصبعا واحدا ولكن القوم من شدة حرصهم على عدم السماع وخوفهم أن يتسرب إلى آذانهم شيء من كلام نوح عليـه السلام جعلوا أصابعهم في آذانهم لئلا يتسرب إليها من كلام نوح شيء واستغشوا ثيابهم حتى لا يروه وأصروا على الشرك واستكبروا عن التوحيد استكبارا .

ومع هذا الاصرار من قوم نوح فإنه عليه السلام لم يترك دعوتهم بل استمر فيها كما صرح بذلك في قوله : - (ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا) .

وهكذا يعلم نوح عليه السلام الدعاة الاصرار على الدعوة وإن أصر المدعوون على رفضها لا لشيء إلا طمعا في الأجر الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله لعلي رضي الله عنه : - " فو الله لئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم " وإلا حرصا على نجاة المدعوين الذين يرفضون الدعوة لأن الدعاة : - يعلمون علم اليقين أن من رفض دعوة الله عز وجل فقد وجبت له النار كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : - " مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي " .

لذلك كان نوح عليه السلام مصرا على الاستمرار في الدعوة مع اصرار قومه على عدم قبولها ، ولهذا أمر الله نبينا محمدا صـلى الله عليه وسلم إذ قال له قومه كما قال الله تعالى : - (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون) أي : - فاعمل أنت على طريقتك ونحن على طريقتنا فلن نتبعك أبدا ولن نؤمن لك أبدا هكذا قالوا ومع ذلك يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلى التوحيد والاستقامة فيقول له عقب قولهم هذا (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنمـا إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين) وفي هذا تعليم للدعاة ألا يتركوا الدعوة لمجرد قول المدعوين أو بعضهم : - لن نؤمن لك فإن الأمر ليس إليهم وقلوبهم ليست بأيديهم وإنما كما جاء في الحديث : - " إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من

أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء " وكم من كافر حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم والدعوة وقتـــل المســـلمين ثم شرح الله صدره للإسلام ، متى أسلم الفاروق عمر ومتى أسلم سيف الله المسلول خالد ومتى أسلم أبو سفيان وابنه معاوية وغيرهم من أمثالهم كثير ، فعلى الداعية ألا ييأس من الناس أبدا وعليه أن لا يهتم بكثرة الأتباع فإن نوحا عليه السلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما فما آمن معه إلا قليل ، وقد يستعظم بعض الناس هذا الجهد المتواصل الذي بذله نوح عليه السلام و يتقالّوا هذه النتيجة ، جهد ألف سنة ومحصلته (وما آمن معه إلا قليل) ولكنا نقول : – إن إيمان واحد فقط أعظم من جهد ألف سنة .

(فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) هذه الآيات تعلم الدعاة أساليب الدعوة وأن على الداعية أن يستخدم في الدعوة الأسلوب المناسب فيستخدم الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى ، ثم يرشدهم إلى آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، فقول نوح عليه السلام : – (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا) أي : – كثير المغفرة لمن استغفره كما قال تعالى : – (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفــورا رحيما) وفي الحديث القدسي قال الله تعالى : – " يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شــيئا لأتيتك بقرابها مغفرة " ، هذا آجل ثواب الاستغفار (فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا) أما عاجل ثواب الاستغفار فهــو : – (يرسل السماء عليكم مدرارا) أي : – متواصلة الأمطار فالأمطار تحبسها الذنوب وترسلها التوبة (ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) أي : – إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثّر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء وأنبت لكم من بركات الأرض وأنبت لكم الزرع وأدر لكم الضرع (وأمدكم بأموال وبنين) أي : – أعطاكم الأموال والأولاد وجعل لكـــم جنات فيها أنواع الثمار وخللها بالأنهار الجارية بينها ، والربط بين الايمان بالله وتقواه والاستغفار وسعة الرزق قد ذكـــر في القـــرآن الكريم في أكثر من موضع قال الله تعالى : – (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) وقال تعالى : – (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملوا) وقال تعالى : – (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) .

ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام يأمرون أقوامهم بالاستغفار كما أمر به نوح قومه قال تعالى عن هود عليه السلام : – (ويـــا قـــوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) وقال الله تعالى عن نبينا محمـــد صلى الله عليه وسلم : – (ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشـــير وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤتي كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يـــوم كبير) وهكذا رغب نوح عليه السلام قومه في الاستجابة له واتباعه على ما جاء به من عند الله سبحانه وتعالى .

ثم انتقل عليه السلام إلى التخويف والترهيب بعد الترغيب فقال : – (مالكم لا ترجون لله وقارا) .

قال ابن عباس : – لا تعظمون الله حق عظمته أي : – لا تخافون من بأسه ونقمته ، ثم انتقل بعد ذلك إلى تنبيههم إلى آيات قدرة الله وعظمته في أنفسهم فقال : – (وقد خلقكم أطوارا مالكم لا ترجون لله وقارا) والحال أن الله سبحانه وتعالى قد خلقكم أطـــوارا ، وهذه الأطوار قد بينها ربنا سبحانه وتعالى في سورة الحج والمؤمنون فقال سبحانه : – (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجـــل مســـمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا) وقال سبحانه : – (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامـــا

فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون فلينظر الانسان ممّ خلق وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) .

ولما لفت أنظارهم إلى آيات الله في أنفسهم لفتها بعد ذلك إلى ما في الكون من آيات فقال : –(ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) كما قال سبحانه وتعالى : – (الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلــق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ولقد زينا الســماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) وقال سبحانه : – (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجــري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليـــل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) وقال تعالى : – (تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) .

ثم يلفت أنظارهم إلى النشأة الأولى التي تدلهم على النشأة الآخرة وأن الله يحيي الموتى ويبعث من في القبور فقال : – (والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا) وهذه الآية كقول ربنا سبحانه : – (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) .

وفي حديث البراء بن عازب : – في وصف قبض روح العبد المؤمن والكافر قال النبي صلى الله عليه وسلم في حق العبد المؤمن : – " فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل : – اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الارض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى " .

وقوله : – (والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا) يعني : – أن الله سبحانه هو الذي جعل لكم الأرض ذلــولا وممهدة لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أنى شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها ومراد نوح عليه السلام من ذلك كله أن يجعلهم يقرون بتوحيد الإلهية كما كانوا مقرين بتوحيد الربوبية فلقد كانوا مقرين بأن الله هو الذي خلق سبع سماوات طباقا وأنه هو الــذي جعــل الأرض بساطا وأنه هو الذي خلقهم ورزقهم ومع ذلك كانوا يعبدون مع الله الأصنام والأوثان فأراد نوح عليه السلام مــن لفــت أنظارهم إلى دلائل عظمة الله أن يتحصل منهم على الإقرار بأن الله عز وجل يجب أن يعبد وحده كما خلق وحده ، ومع طول المــدة وتنوع الأساليب كانت النتيجة العصيان والتمرد والتواصي بالكفر (قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولــده إلا خسارا) اتبعوا سادتهم وكبرائهم الذين يدعونهم إلى النار وعصوني وأنا أدعوهم إلى العزيز الغفار .

(ومكروا مكرا كبارا) أي : – مكرا متناهيا في الكبر ، مكروا لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس ومكروا لتزيين الكفر والضلال والجاهلية التي تخبط فيها القوم ، وكان من مكرهم تحريض الناس على الإستمساك بالأصنام التي يسمونها آلهة (وقالوا لا تذرن آلهتكم) هكذا بهذه الإضافة (آلهتكم) لإثارة النخوة الكاذبة والحمية الآثمة في قلوبهم وخصصوا من هذه الأصــنام أكبرها شأنا فخصوها بالذكر ليُهيّج ذكرها في قلوب العامة المُضلَلين الحمية والاعتزاز (ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعــوق ونسرا) وهي أكبر آلهتهم التي ظلت تعبد في الجاهلية بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية .

كما روى البخاري رحمه الله في الصحيح بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : – صارت الأوثان التي كانت في قوم نــوح في العرب بعد ، أما ود فكانت لكلب بثوبة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غُطيف بالجرف عند ســبأ وأما يعوق فكانت لهمذان وأما نسغ فكانت لحمير لآل ذي الكلار ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وترسخ العلم عبدت .

وقوله : – (وقد أضلوا كثيرا) يعني : – الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرا فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زمننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم و قد قال الخليل إبراهيم عليه السلام في دعائه : – (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس) ولقد كان في تصريحهم بهذه الوصية (لا تذرن آلهتكم) إشارة لنوح عليه السلام : – أن القوم لا خير فيهم بل إن الله سبحانه أوحى إلى نوح بما تشير إليه هذه الوصية كما قال عز وجل : – (وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) وهنا : – وجد نوح عليه السلام هذا الدعاء ينبعث من قلبه (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) وقبل أن يتم الدعاء يذكر الرب سبحانه ما أحاط بالقوم من العذاب فقال : – (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) وقد ذكر سبحانه وتعالى في سور أخرى كيف أغرقوا فقال في سورة القمر : – (فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر) وفي قوله تعالى : – (أغرقوا فأدخلوا نارا) إشارة إلى ثبوت عذاب القبر كما هو معتقد أهل السنة والجماعة أنهم يؤمنون بنعيم القبر لمن كان له أهلا وبعذاب القبر لمن كان له أهلا ، نسأل الله أن يجيرنا من عذاب القبر وعذاب النار وأن يجعل قبورنا روضة من رياض الجنة

ووجه الاستدلال بالآية : – على عذاب القبر أن الله سبحانه رتب دخولهم النار بعد غرقهم بالفاء التي تفيد الترتيب مع التعقيب ، ومعلوم أن نار الآخرة لم يدخلوها بعد فدل ذلك على أن النار التي دخلوها بعدما أغرقوا هي نار القبر ، ومما يدل على ذلك أيضا قول ربنا سبحانه : – (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) وبعد هذا العرض لعذاب القوم الذي أصابهم في الدنيا وبعد الموت تأتي بقية دعاء نوح عليه السلام (وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) أي : – لا تترك على وجه الأرض منهم أحدا ، ثم يعلل دعوته بقوله : – (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) وهذا منه عليه السلام بناء على ما أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن .

وفي نهاية المطاف وبعد هذا الجهد الذي بذله نوح عليه السلام في دعوة قومه يتوجه عليه السلام إلى ربه يطلب منه أن يغفر له فعسى أن يكون قد وقع منه خطأ أو تقصير (رب اغفر لي) فأنا بحاجة إلى مغفرتك ولا غنى لي عن رحمتك .

وهكذا نرى نوحا عليه السلام وهو رسول الله يستغفر الله بينما قومه الكفرة الفجرة يرفضون أن يستغفروا الله ، وفي استغفاره عليه السلام تعليم للدعاة أن ينيبوا إلى ربهم دائما بالاستغفار فإنهم مهما قدموا من تضحيات فإنهم مقصرون .

ولم ينس نوحا عليه السلام أن يستغفر لوالديه وللمؤمنين والمؤمنات فقال : – (رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا)

ويظهر من استغفار نوح عليه السلام لوالديه أنهما كانا مؤمنين وإلا لروجع فيهما كما روجع في ولده حين قال : – (رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين) وفي استغفاره عليه السلام : – للمؤمنين عامة ولمن دخل بيته مؤمنا خاصة إرشاد وتعليم للمؤمنين ولاسيما الدعاة منهم أن يستغفروا لإخوانهم المؤمنين إذا استغفروا لأنفسهم فبذلك أمر الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فقال له : – (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وقد حث صلى الله عليه وسلم المؤمنين والمؤمنات على أن يستغفر بعضهم لبعض ورغبهم في ذلك فقال عليه الصلاة والسلام : – " من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة "

(رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم الحساب) .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المحاضرة السابعة

تفسير سورة الجن

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فــلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اللهم صلي وسلم وبارك عليــه وعلــى آلــه وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكــل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

ثم إن موعدنا في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير سورة الجن ، فنقول وبالله تعالى التوفيق : -

سورة الجن

سورة مكية : - شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة وبيان أصول الدين وأركان الايمان ولا سيما التوحيد والرســالة والبعث .

ومحور السورة : - يدور حول هذا العالم من عوالم الغيب وهو عالم الجن هذا العالم الذي ضل بسببه أكثر الناس فلقد كــان العــرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعتقدون أن للجن سلطانا في الأرض فكان الواحد منهم إذا أمسى بواد أو قفر لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض فقال : -أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ، ثم بات آمنا

كذلك كانوا يعتقدون : - أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان فيتنبؤون بما يتنبؤون وفيهم من عبد الجن وجعل بينهم وبين الله نسبا وزعم له سبحانه وتعالى زوجة منهم تلد لهم الملائكة والاعتقاد في الجن على هذا النحو أو شبهه كان قياسيا في كل جاهلية ولا تــزال الأرض الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات كثيرات إلى يومنا هذا .

وقد تكلفت هذه السورة : - بتصحيح ما كان مشركوا العرب وغيرهم يظنونه عن قدرة الجن ودورهم في هذا الكون كما تكفلــت بوضع حقيقة هذا الخلق المغيب في موضعها بلا غلو ولا اعتساف .

قال الله تبارك وتعالى : - (قل اوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا وأن ظننا أن لن تقول الإنس والجن علــى الله كذبا وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا) .

كانت الجن قبل بعثة النبي صلى لله عليه وسلم : - يسترقون السمع يركب بعضهم بعضا حتى يبلغوا عنان السماء فيسمعون الملائكة وهم يتحدثون بالأمر مما قضى الله أن يكون في الأرض فيلقيها الأعلى إلى من هو دونه وهكذا حتى تصل أدناهم فيقرها في أذن وليه من الكهنة والعرافين فيخبر الناس بها فإذا كانت صدقوه فكذب عليهم مئة كذبة مقابل كلمة الحق التي أقرها الشيطان في أذنه وكانــت الشهب يرمى بها من يسترق السمع ولكن كان ذلك نادرا وقليلا .

وكانت العرب قديما : - إذا رأوا شهابا سقط يقولون ولد عظيم أو مات عظيم ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم زيد في حراسة السماء فكان كل من استرق السماء أتبعه الشهاب الثاقب وحيل بينهم و بين يشتهون فقالوا : - ما هذا إلا لأمر حــدث فــأمرهم كبيرهم إبليس أن يتفرقوا يمينا وشمالا فينظروا ما حدث فأتت طائفة منهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصــلي بأصــحابه صلاة الفجر بنخلة جهة تهامة فلما سمعوا القرآن استمعوا له وأنصتوا فلما قضي قالوا : - هذا الذي حال بينكم وبين خبر الســماء وتأملوا القرآن وتدبروه فعلموا أنه ليس من كلام الانس ولا من كلام الجن وليس شعرا ولا كهانة فآمنوا به ثم رجعــوا إلى قــومهم

يدعوهم إلى الاسلام والايمان ولم يشعر بهم النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليه قول الله تعالى : – (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن) وهذه الآيات كقوله تعالى في سورة الاحقاف : – (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس لهم من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين) وفي هذه الآيات إشارة إلى عموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الجن والانس وأن الغاية من خلق الجن هي : – هي الغاية من خلق الانس كما صرّح بذلك القران الكريم في قول رب العالمين : – (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

وقوله سبحانه : – (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن) يعني : – ولم أدر بهم حتى أوحي إلي ، فقالوا : – وقد رجعوا إلى قومهم منذرين (إنا سمعنا قرآنا عجبا) عجبا في تأليفه وعجبا في تركيبه وعجبا في فصاحته وعجبا في بلاغته وعجبا في تأثيره في القلوب (يهدي إلى الرشد) أي : – يهدي إلى السداد والنجاح .

(فآمنا به) وهذه هي النتيجة الحتمية لكل من استمع للقرآن بقلب سليم ، كل من استمع للقرآن بقلب سليم لا يملك بعد ذلك إلا الايمان لأن هذا القرآن كلام الله رب العالمين وهذا الايمان بالقرآن يسلم إلى الايمان بالرسول الذي بلّغه وهو محمد عليه الصلاة والسلام ، ولقد استمعت إلى مسلم يحاضر ذات ليلة في مسجد من مساجد القاهرة وكان قسيسا فأسلم فكان يذكر سبب اسلامه فقال : – كان أستاذا في كلية اللاهوت وكان يقرأ القرآن كثيرا ليعرف كيف يطعن فيه وذات ليلة كان يقرأ القرآن فأتى على سورة الجن : – (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به) قال : – فأخذت أرددها قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به رددهّا حتى أصبحت وقد شرح الله صدري للإسلام وعلمت أنه الحق .

إنه القرآن أليس قد شهد له الأعداء والفضل ما شهدت به الأعداء ، ألم يقل فيه الوليد بن المغيرة : – والله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني لا أشعار الانس ولا أشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإنه ليحطّم ما تحته وإنه ليعلو وما يعلى ، وصدق الله العظيم حيث قال : – (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) ولكن القلوب إذا قست كانت أشد من الحجارة في صلابتها ولذا قال تعالى : – (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) .

و قوله تعالى : – (فآمنا به) أي : – إيمانا صادقا سليما من الشرك (ولن نشرك بربنا أحدا) لأن الايمان الذي يخالط الشرك : – يقتل ولا ينفع فشرط النجاة يضر ولا ينفع لأن الايمان الذي يخالطه الشرك : – يضر ولا ينفع .

فشرط النجاة بالإيمان : – أن يكون سليما من الشرك قال الله تعالى : – (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : – لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وقالوا : – أينا لا يظلم نفسه فقال صلى الله عليه وسلم : – " ليس ذاك إنما هو الشرك ألم تسمعوا قول لقمان لابنه " (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) ولكن كثيرا من الناس آمنوا بالله ثم أشركوا كما قال تعالى : – (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) .

ثم نزه الجن ربهم عن الصاحبة والولد فقالوا : – (وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) يعني : – تعالت عظمة ربنا عن اتخاذ الصاحبة والولد ، لا يليق بعظمة الله وجلاله وكبريائه أن يكون له زوجة أو ولد ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ولقد كانوا وقعوا في هذا الاعتقاد الباطل تقليدا لبعض كفرة الانس والجن الذين زعموا لله ولدا فالآن حصحص الحق وعلموا أن الله لم يتخذ صاحبة ولا ولدا فآمنوا بذلك ونزهوه سبحانه عما قال الظالمون وقالوا معتذرين عما وقعوا فيه من الباطل : – (وأنه كان يقول

سفيهنا على الله شططا) . أي : – قولا عظيما في الافتراء والمراد بقولهم سفيهنا الذين قالوا اتخذ الله ولدا ، فالآن وقد ظهر الحق وعرفوا أن الله لم يتخذ صاحبة ولا ولدا نسبوا قائل هذا القول إلى السفاهة فهم سفهاء حمقى جهلة حين ادعوا لله ولدا .

ثم ذكروا ما حملهم على تصديقهم فقالوا : – (وأنا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذبا) لقد كنا نعتقد أنه لا يجرء أحد أن يفتري الكذب على الله فلما قالوا لله ولد صدقناهم وقلنا : – لا بد أن عندهم علما بذلك ولم نظن أن يكذبوا على الله والآن قد تبين الحق وظهر كذبهم فرجعنا عن هذا الباطل ونزهنا الله عما يقول الظالمون ، وهكذا كان الجن مغرورين بسفهائهم مخدوعين بهم حتى تبين لهم الحق ، وكم من رجال مخدوعين مفتونين برجال ظنوهم صالحين وهم إخوان الشياطين حتى إذا أراد الله بهم الخير أظهر لهم الحق على يد أوليائه فعلموا أنهم كانوا في ضلال مبين .

وقوله تعالى : – (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) .

قال عكرمة : – كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد فكان الإنس إذا نزلوا واديا هرب الجن فيقول سيد القوم : – نعوذ بسيد أهل هذا الوادي فقال الجن : – نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون . وعلى ما يخاف الإنس من الجن ، إن الجن أضعف من الإنس فهم يخافونهم كما ذكر عكرمة .

وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : – " والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك " ، وهكذا كل من كان قويا في دينه ، فالجن : – ضعيف جدا فكيف يخاف الانسان ، إن المؤمن المعتصم بالله المتوكل عليه ما جعل الله للشيطان سبيلا عليه كما قال سبحانه : – (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) والشيطان نفسه استثنى عباد الله الصالحين من إغوائه (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) ولقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى الإستعاذة بالله من شر ما خلق إذا نزل أحدهم متزلا فقال صلى الله عليه وسلم : – " من نزل متزلا ثم قال : – أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من متزله ذلك "

كما أرشد إلى هذه الاستعاذة كل ليلة : – عند المساء ليسلم المسلم من كل شر ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : – جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة قال : – " أما لو قلت حين أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضرك " .

وقوله تعالى : – (وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا) هذا خطاب من الجن الذين آمنوا لغيرهم من الجن يقولون إن الانس كانوا يظنون كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا وهذا البعث الذي ظنوا جميعا أن لن يكون يحتمل أن يراد به أن لن يبعث الله بشرا رسولا ويحتمل أن يراد به أن لن يبعث الله أحدا بعد موته ، وكلا المعنيين باطل فقد بعث الله بعد عيسى محمدا صلى الله عليه وسلم وكانوا يظنون أن لن يبعث الله من بعده رسولا وأما البعث بعد الموت فهو واقع ولابد لأن الله أقسم عليه وأمر نبيه أن يقسم عليه فقال تعالى : – (ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) .

وأمر الله تعالى النبي أن يقسم على أن البعث حق فقال : – (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى و ربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) .

وقوله تعالى : – (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملأت حرسا شديدا وشهبا وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) هذا إخبار من الجن عما كانوا يقومون به من استراق السمع قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وأنه بعد بعثته صلى الله عليه وسلم ملأت السماء حرسا شديدا وحفظت من سائر أرجائها وحيل بين الجن وبين ما كانوا يخطفون من خبر السماء كما سبق بيانه فالآن لا يقدرون على ذلك ولهذا قالوا : – (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملأت حرسا شديدا وشهبا وأنا كنا نقعد منها مقاعد

للسمع) يعني قبل ذلك : - (فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) أي : - من يظن أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابا مرصدا له لا يتخطاه ولا يتعداه بل يمحقه ويهلكه ، ثم نفوا عن أنفسهم علم الغيب فقالوا : - (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) أي : - ما ندري هذا الأمر الذي حدث في السماء أهو شر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ، لا ندري لأنه من علم الغيب ونحن لا نعلم الغيب .

وفي قولهم هذا : - تأدب مع الله تعالى حيث لم يسندوا الشر إليه وأسندوا إليه الرشد وهذا من أدب الأنبياء والصالحين فقد قال الخليل ابراهيم عليه السلام : - " الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعموني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين " فأسند المرض : - إلى نفسه ولم يسنده إلى ربه . وكان الخليل محمد صلى الله عليه وسلم يقول في مناجاة ربه : - " والشر ليس إليك " .

وقولهم : - (وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا) هذا إخبار من الجن بأنهم مثلنا تماما فرق وطرق وأحزاب (كل حزب بما لديهم فرحون) .

(قالوا وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا) ثم أخبروا عن ضعفهم وعجزهم وقدرة الله عليهم فقالوا : - (وأنا ظننا) والظن هنا بمعنى الاعتقاد الجازم (أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا) فانظر كيف أخبروا أنهم خلق من خلق الله نواصيهم بيده إذا شاء أن يأخذهم أخذهم ولن يعجزوه ولن يستطيعوا إذا حاولوا أن يهربوا من قدره ولهذا قال تعالى : - (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا) .

قال العلماء في تفسيرها : - إن استطعتم أن تخرجوا من أقطار السماوات والأرض هربا من قضائه فاخرجوا ثم أخبر عن عجزهم فقال : - (لا تنفذون إلا بسلطان) أي : - بقوة أقوى من قوة الله وأنى لهم ذلك .

وقولهم : - (وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به) يفتخرون بذلك وحق لهم ولقد سمعوا القرآن فسموه هدى لأن الهدى حقيقته والهدى طبيعته والهدى كامن فيه ، من ابتغى الهدى في غيره أضله الله قال تعالى : - (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) وقال تعالى : - (فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ظنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) .

وفي قولهم هذا : - تعريض بالمشركين الذين أعرضوا عن القرآن وقالوا : - (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) وقالوا : - (قلوبنا في أكنة مما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون) وكأن الجن المؤمنين يقولون لهؤلاء المشركين المعرضين فأين تذهبون .

(وأني لما سمعنا الهدى آمنا به) لأول مرة فما بالكم لا تؤمنون والقرآن يتلى عليكم صباح مساء .

وقولهم : - (فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا) أي : - لا يخاف أن يبخس حقه ولا يحمل وزر غيره كما قال تعالى : - (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) .

وقولهم : - (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون) أي : - الجائرون الظالمون ، فالقاسط هو : - الجائر الظالم أما المقسط فهو العادل ، قال تعالى : - (وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) وقال هنا : - (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) .

وقولهم : - (فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا) أي : - اختاروا لأنفسهم النجاة بقبولهم الإسلام الذي هو دين الحق بعد التحري ودقة النظر والتأمل فيه حتى تبين لهم أنه الحق (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) كما قال تعالى للمشركين : - (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) يعني : - حطب جهنم ، ولذا قال تعالى للمؤمنين : - (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة) فالناس هم القاسطون والحجارة هي : -الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله .

وقوله تعالى : - (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) المراد بالطريقة الطريقة المحمدية النبوية ، فعليك يا عبد الله بطريقة رسول الله ودع سائر الطرق فإنها طرق ضلالة ، إن طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الصراط المستقيم الذي أمرت

بالتزامه والسير عليه واجتناب ما سواه كما قال تعالى : - (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

وقوله تعالى : - (لأسقيناهم ماء غدقا) أي : - هنيئا مريئا متتابعا لا ينقطع عنهم .

وقوله تعالى : - (لنفتنهم فيه) أي : - نوسع عليهم في الرزق لنبلوهم أيهم أحسن عملا ولنعلم من يشكر منهم ومن يكفر .

وقوله تعالى : - (ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا) أي : - يدخله في نوع من العذاب خاص وهو الصعود فيكلف وهو في أسفل واد في جهنم أن يصعد في جبل منها وفي ذلك من العناء والارهاق والمشقة ما لا يخفى كما قال تعالى : - (سأرهقه صعودا) .

وقوله سبحانه : - (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) لأن : - دعاء غير الله ينافي توحيد الله (فلا تدعوا مع الله أحدا) كما قال تعالى : - (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم) وإذ الأمر كذلك فلا تدع مع الله أحدا لأن الدعاء : - هو العبادة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان أحد لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا عن أن يملكه لغيره فكيف تدعوهم من دون الله (أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) فادعوا الله مخلصين له الدين وإذا سألتم فاسألوا الله وإذا استعنتم فاستعينوا بالله واعلموا أن الأمر كله لله (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم) .

وقوله تعالى : - (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) المراد بعبد الله : - محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومعنى الآية : - أنه لما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله اجتمعت الانس والجن على إطفاء نور هذا الدين فأبى الله إلا أن يظهره على الدين كله ، ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم أنه ليس لهم من الأمر شيء وإنما هو نذير مبين فقال تعالى : - (قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا قل إني لن يجيرني من الله أحد) أي : - لا أحد ينقذني من عذاب الله إن عصيته (ولن أجد من دونه ملتحدا) أي : - لا أجد نصيرا ولا ملجأ ألجأ إليه وأستجير به من عذاب الله .

وقوله تعالى : - (إلا بلاغا من الله ورسالاته) معناه أنه لا سبيل للنجاة من عذاب الله إلا أن أبلغكم ما أرسلت به إليكم فهذا هو السبيل الأوحد لنجاتك فهذه هي وظيفتي البلاغ (فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم) .

(ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها) وهذا وعد الحق (حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا) .

(قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا) يعني : - لا أعلم متى يحل بكم عذاب الله ولا أعلم متى تكون الساعة لأن ذلك من علم الغيب : - وهو من خصائص الرب سبحانه فهو (سبحانه عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) فلا يعلم الغيب ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا ولي صالح من الجن والإنس .

وقوله تعالى : - (إلا من ارتضى من رسول) أي : - من الملائكة أي : - من يترلون عليهم بالوحي من البشر فإن الله يطلعه على بعض الغيبيات وهذه كما قال تعالى : - (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) .

وقوله تعالى : - (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) أي : - يقص بمزيد حفظه من الملائكة .

(ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) أي : - ليعلم الله أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم من غير زيادة ولا نقص وهو سبحانه يعلم ذلك سلفا ولهذا قال : - (وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا) فسبحان الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الاجمالي

المحاضرة الثامنة

تفسير سورة المزمل

إن الحمد لله نحمده و نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

ثم إننا في هذا الدرس إن شاء الله تعالى على موعد مع تفسير سورة المزمل : -

سورة المزمل

وهي سورة مكية : - من أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الله تعالى فيها لنبيه صلى الله عليه وسلم وللدعاة بعده وسائل الإعداد الجسدي والروحي للدعاة إلى الله ، فالدعوة إلى الله صعبة وشاقة ولابد لكل من أراد القيام بها أن يهيأ نفسه لها جسديا وروحيا قبل أن يخوضها .

والوسائل التي ذكرتها السورة الكريمة هي : -

- **١) قيام الليل**
- **٢) ترتيل القرآن**
- **٣) الذكر الخاشع والمتبتل**
- **٤) الاتكال على الله وحده**
- **٥) الصبر على الأذى**
- **٦) التعبيد**

استفتح الله سبحانه وتعالى السورة الكريمة : - بهذا النداء اللطيف الذي يفيض محبة ومودة من الله لرسوله : - (يا أيها المزمل) أي : - يأيها الملفوف بثيابه ، المتغطي بها قم فليس الوقت وقت نوم وليس الوقت وقت راحة ، وليس الوقت وقت كسل وخلود إلى الفراش ، قم فإن أمامك طريقا شاقا ستركبه ابتغاء وجه الله فقم وهيئ نفسك له بما نأمرك به (قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا) وهكذا يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقيام الليل ويحدد له الوقت قم الليل كله إلا قليلا فإن لم تفعل فنصفه أو انقص منه أي : -من النصف قليلا فيكون المراد الثلث أو زد عليه أي : - على النصف قليلا فيكون المراد الثلثين فلا حرج عليك بأن تنقص من النصف قليلا أو تزيد عليه قليلا ولقد استجاب صلى الله عليه وسلم لأمر ربه فقام الليل كما أمره وحافظ عليه حتى بعد نسخ هذا الأمر حتى قالت عائشة رضي الله عنها : - " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له : - لم

تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال : – " أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا " وكان صلى الله عليه وسلم يرغب في قيام الليل ويحث عليه فكان يقول : – " عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة لكم إلى ربكم " وكان عليه الصلاة والسلام يقول : – " أتاني جبريل فقال يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناءه على الناس " فعلى الدعاة إلى الله : – أن يحافظوا على قيام الليل فإنه عنوان الإيمان ودليل الإحسان كما قال الله تبارك وتعالى : – (إنما يؤمن بآيتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءا بما كانوا يعلمون) وقال سبحانه : – (إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم) .

وفرق الله تعالى بين من يقوم الليل ومن لا يقوم ونفى التسوية بينهما فقال عز وجل : – (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الأخرة ويرجوا رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) وقوله تعالى : – (ورتل القرآن ترتيلا) أي : –اقرأه على تمهل فإنه يكون عونا على فهم القرآن وتدبره وهكذا كان يقرأ صلى الله عليه وسلم حتى إنه كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها .

كما قالت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها ، وعن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : – " كانت مدا " ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم وقال صلى الله عليه وسلم : – " أقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لصاحبه " وقال صلى الله عليه وسلم : – " يقال لصاحب القرآن إقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن مترلتك عند آخر آية تقرأها " .

فعلى الدعاة : – أن يحرصوا على تلاوة القرآن وترتيله في القيام وغيره فإن قراءة القرآن قربة من أعظم القرب وعبادة من أجل العبادات يعطي الله تبارك وتعالى عليها من الأجر والثواب ما لا يعطي على غيرها وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم كثرة هذا الأجر بقوله : – " من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول (ألم) حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف " .

والداعية الأحفظ للقرآن والأحسن ترتيلا : – هو الأملك لقلوب السامعين والأكثر تأثيرا فيهم فعلى الدعاة : – أن يكون القرآن في صدر أحدهم كالمصحف في يديه فإن القرآن هو سلاح الداعية وزاده الذي لا ينفذ .

ثم كشف الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم عما بعد هذا الجهاد من الحكمة فقال : – (إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا) يحتاج إلى استعداد طويل وهو هذا القرآن إنه ثقيل في تكاليفه ثقيل في أوامره وثقيل في نواهيه وكان ثقيلا عليه صلى الله عليه وسلم ساعة نزوله حتى قالت عائشة رضي الله عنها : – " ولقد رأيته يترل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جنبيه ليتفصد عرقا " .

وقال زيد ابن ثابت : – أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن ترضى فخذي ، فإن قيل : –

سؤال : –

فهلا اكتفى في استعداده لهذا الأمر بالصلاة وقراءة القرآن في النهار بدلا من الليل ؟ .
فالجواب : –
(إن ناشئة الليل هي أشد وطاء وأقوم قيلا) فرق كبير جدا من العبادة في الليل والعبادة في النهار فالعبادة في الليل أقرب ما تكــون إلى الخشوع حيث يقوم لها الإنسان بعد نوم فيكون قد استراح من تعب النهار وكدحه فيه وأيضا سكون الليل يعين على الخشوع فيستطيع أن يجمع قلبه ويقبل بكليته على الله تعالى وهذا شيء ملموس ومحسوس لا يحتاج إلى برهان .
وقوله تعالى : – (إن لك في النهار سبحا طويلا) ، أي : – ترددا في حوائجك ومعاشك يوجب اشتغال قلبك وعدم تفرغه التفرغ التام فلينقضي النهار في هذا السبح والنشاط ولتنصب لعبادة ربك في الليل .
وقوله تعالى : – (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) أي : – أكثر من ذكره وانقطع إليه وتفرغ لعبادة إذا فرغت من أشغالك ومــا تحتاج إليه من أمور دنياك ، وذكر اسم الله ليس هو مجرد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان على المسبحة المئوية والألفية إنما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر ، أهو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها ، والتبتل : – هو الانقطاع الكلي عما عدا الله والاتجاه الكلــي إليــه بالعبادة والذكر والخلوص من كل شاغل ومن كل خاطر والحضور مع الله بكل الحس والمشاعر .
فعلى الداعية : –
١) أن يذكر الله ذكرا كثيرا وألا يغفل عن ذكر الله أبدا .
٢) وعليه أن يكون لسانه رطبا من ذكر الله .
٣) عليه أن يذكر الله في سره
٤) وأن يذكر الله في علانيته .
٥) عليه أن يذكر الله في خلوته
٦) وأن يذكر الله في اختلاطه .
٧) فإن القلوب إنما تطمئن بذكر الله . كما قال تعالى : – (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)
٨) وعلى الداعية أن يتبتل إلى الله
٩) وأن ينقطع إليه عما سواه فإنه سبحان رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو وما دام كذلك فاتخذه وكيلا أي : – كما عبدته وحــده فتوكل عليه وحده كما قال تعالى : – (فاعبده وتوكل عليه) وكما علمنا أن نقول في عبادتنا له في الصلاة : – (إياك نعبــد وإيــاك نستعين) .
١٠) والداعية أحوج الناس إلى التوكل على الله والاعتماد عليه دون سواه فمن هنا يستمد القوة والزاد للعبء الثقيل في الطريق الطويل (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .
ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر الجميل على أذى قومه وتكذيبهم له وصدهم الناس عنه فقال سبحانه : – (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) .

فلا بد للداعية من الصبر : –
١) الصبر على الأذى .
٢) والصبر على التكذيب .
٣) والصبر على صد الناس عنه .

٤) والصبر على طول الطريق .
٥) والصبر على ثقل العبء .
٦) والصبر على تأخر النتائج .
ولذا كثر الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالصبر في القرآن الكريم (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا) ، والهجر الجميل : – هو الهجر الذي لا عند معه ولا غضب ولا مشادة وكان ذلك في مكة قبل الهجرة وقبل أن يأذن الله لرسوله في قتال المشركين ثم قال تعالى مهددا الكافرين ومتوعدهم وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء : – (وذرني والمكذبين) أي : – خلي بيني وبينهم أتركم لي فأنا القادر على الانتقام منهم ولقد كانوا أولى الناس بالإسلام واتباع النبي عليه الصلاة والسلام شكرا لله على ما حباهم من نعم ولكن القوم بدّلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار (ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون) ولذا قال تعالى : – (وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا) ولو مهد لهم الدنيا كلها ما كانت إلا قليلا فما الدنيا في حساب الله إلا يوم أو بعض يوم وما هي في حساهم هم أنفسهم حين تطوى إلا كذلك. كما قال تعالى : – (كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتكم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) .
ثم ذكر ماهم عنده من العذاب فقال عز وجل : – (إنا لدينا أنكالا) أي : – قيود أو جحيما وقودها الناس والحجارة وطعاما ذا غصة ينشب في الحلق فلا يدخل ولا يخرج وعذابا أليما كل كذلك بتحقق لهم ويجدونه يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيبا أي : –تصير كثبان الرمل ، بعدما كانت حجارة صماء ثم إنها تنسف نسفا فلا يبقى منه شيئا إلا ذهب حتى تصل الأرض قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتى كما قال تعالى : – (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتى) .
ثم وجه الله تعالى الخطاب إلى الذين كذبوا نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم فذكرهم بمن كذب رسولهم من قبل وكيف أخذهم أخذ عزيز مقتدر لما كذبوا رسله وعصوا أمره ، فقال تعالى : –(إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون ورسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذ وبيلا) فاحذروا معشر الناس أن تعصوا رسولكم كما عصى فرعون الرسول فيأخذكم الله كما أخذ فرعون إن أخذه أليم شديد .
ثم قال تعالى : – (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الوالدان شيبا السماء منفطر به كان وعدهم مفعولا) وإنه ليوم عظيم هوله حيث تشيب من هوله الوالدان وتنفطر السماء وتنشق الأرض وتسير الجبال سيرا ومعناه أنكم إن كفرتم فلن يحصل لكم أمان من هول هذا اليوم العظيم وهو كائن لا محالة لأنه وعد الله والله لا يخلف الميعاد ، ثم يلمس قلوبهم لتتذكر وتختار طريق السلامة طريق الله فيقول : – (إن هذه تذكرة) أي : – هذه السورة وما جاء فيها تذكرة (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) أي : – طريقا ومسلكا فإنه لا نجاة من هذه الأهوال التي ذكرتها السورة عن اليوم الآخر إلا بسلوك سبيل الله ومشيئة كل إنسان مرتبطة بمشيئة الله عز وجل كما قال في موضع آخر : – (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما) .
وقوله تعالى : – (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن) هذه هي آية التخفيف .
فلقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوم الليل فقام هو والذين آمنوا معه سنة كاملة حتى تفطرت أقدامهم ثم خفف الله عنهم بهذه الآية فجعل القيام مندوبا بعدما كان واجبا وأمرهم أن يقرؤوا ما تيسر من القرآن من غير تحديد .
وعبر عن الصلاة : – بالقراءة لأنها الركن الأعظم ، ثم ذكر سبحانه وتعالى أسباب التخفيف فقال عز وجل : – (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله) فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا

فمنكم من يكون مريضا لا يستطيع القيام ومنكم من يكون مسافرا في طلب رزق الله ومنكم من يكون مشغولا بقتال أعداء الله فلذلك خفف الله عنكم ، ونسخ الأمر بقيام الليل فصار مستحبا مندوبا بعدما كان واجبا مفروضا .

وفي هذه الآية أكبر دليل على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم حيث لم يكن قتال قد شرع بعد وأخبرهم بأن سيكون منهم من يقاتلون في سبيل الله وهذا إخبار بالغيب لا يمكن أن يكون إلا من عند عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال كما سبق بيانه في آخر سورة الجن (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول) .

ومرة ثانية يكرر عليهم التخفيف (فاقرؤوا ما تيسر منه) أي : - من القرآن بلا عسر ولا مشقة ولا إجهاد وأقيموا الصلاة يعني الواجبة وآتوا الزكاة المفروضة وأقرضوا الله قرضا حسنا يعني من الصدقات المستحبة واعلموا أنه (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا) قال صلى الله عليه وسلم : - " من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها له كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل " .

(فاقرؤوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا) واعلموا دائما أنكم مقصرون في حق الله مهما تحريتم الصواب والاجتهاد فلا تمنوا بما تقدمون من خير .

(واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) .

وهكذا يجب على الداعية دائما : - ألا يرى عملا وأن لا يعجب بجهده وأن يتهم نفسه بالتقصير فما نقدمه لله سبحانه وتعالى فهو دون ما وجب لله تبارك وتعالى علينا ، فعلينا أن نجتهد فيما يقربنا من الله سبحانه وتعالى وعلينا مع هذا الاجتهاد أن نكثر من الاستغفار رجاء أن يعفو الله تبارك وتعالى عن تقصيرنا فهذا هو دأب المتقين كما وصفهم رب العالمين سبحانه وتعالى : - (الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) (إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما أتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون) .

فعلى الداعية : -

١) أن لا يرى عملا

٢) وأن لا يعجب بزهده .

٣) وألا يمن على ربه .

٤) وأن يعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

فما قام به من عمل في الدعوة وما قام من صلاة لله أو صدقة بالليل أو النهار أو غير ذلك من الأعمال فإنما هو توفيق من الله سبحانه وتعالى .

كما قال أصحاب الجنة : - (الحمد لله الذي هدانا لهذا و ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)

فلنجتهد ولنكثر من الاستغفار رجاء : - أن يعفو الله عن تقصيرنا والحذر كل الحذر من أن يعجب الداعية بنفسه أو أن يغتر بجهده أو كثرة أتباعه فإن هذه الأمراض من الأمراض المهلكة التي تحبط العمل وتبطل الأجر والثواب .

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الاجمالي

المحاضرة التاسعة

تفسير سورة المدثر

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله مع تفسير سورة المدثر : –

سورة المدثر

وهي سورة مكية : – وهي من أول ما نزل من القرآن بل هي ثاني سورة بعد العلق فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث عن فترة الوحي يقول : – " فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجفيت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلي فقلت زملوني زملوني فزملوني فأنزل الله تعالى : – (يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر) " .

وقد استفتحت السورة الكريمة : – بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بترك النوم والفراش وأن يقوم فينذر قومه من قبل أن يأتيهم عذاب أليم بما وقعوا فيه من الشرك ثم وجهته صلى الله عليه وسلم إلى بعض الأمور التي يستعين بها على ما كلف به وذكرت بعض أهوال يوم القيامة وما يلقاه الكافرون عموما والوليد بن المغيرة خصوصا من العذاب الأليم في سقر التي جعل الله عليها تسعة عشر من الملائكة لحكمة بينتها الآيات ، ثم ذكرت السورة ما يكون من أهل الجنة من سؤال أهل النار (ما سلككم في سقر) وجواب أهل النار على هذا السؤال .

وختمت : – بالإنكار على المشركين إعراضهم عن التذكرة لا لشيء إلا لأنهم يريد كل امرئ منهم ان يؤتى صفحا منشرة وليس للإنسان ما تمنى فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، وقد أنزل الذكر على محمد صلى الله عليه وسلم فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة .

قوله تعالى : – (يا أيها المدثر) أي : – المتغطي بثيابه (قم) فقد جاء وقت الجهد والمشقة ، قم فأنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم فقد صاروا على شفا حفرة من النار بما هم

مقيمون عليه من الشرك واستعن على هذه المهمة الثقيلة الشاقة بهذه الأمور : –

الأول : – (وربك فكبر) فإن الله : – هو العلي الكبير وكل شيء سواه حقير وهذه حقيقة من أعظم الحقائق التي يجب أن يستشعرها الداعية ، يجب على كل داعية أن يستشعر دائما جلال الله وعظمته وكبريائه حتى يشعر بحقارة كل شيء دونه فلا يهتموا به ولا يكترثوا له ولا يخشاه إنما يخشى الله وحده ، ومتى استشعر الداعية هذه الحقيقة مضى في طريقه يبلغ دعوة ربه ولا يخاف لومة لائم لأنه يعلم أن ربه وحده هو الكبير الذي يستحق أن يكبره ويعظمه ويمجده وأن ما سوى الله فشيء صغير صغير صغير لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام ، فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه : – (يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاؤكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا

تنظرون) وهذا هو هود عليه السلام لما قال له قومه : – (يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) .

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم لما خرج مهاجرا مع صاحبه أبي بكر دخل الغار وجاء القوم في طلبهما حتى انتهوا إلى الغار حتى قال أبو بكر : – يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن قال لصاحبه مطمئنا : – " ما ظنك باثنين الله ثالثها يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا " ، ولما قيل له صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه يوم حمراء الأسد : – " إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم " لم يزدهم ذلك القول إلا إيمانا كما قال تعالى : – (فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) .

الأمر الثاني : – (وثيابك فطهر) . قال المفسرون : – العرب تريد بطهارة الثوب النزاهة والعفة فتقول فلان ذيله طاهر يعنون أنه رجل عفيف وفلان ذيله نجس يعني أنه ملطخ بالقاذورات والفواحش وعلى هذا تكون الطهارة هنا معنوية والمقصود طهر قلبك وطهر نيتك وطهر صدرك وطهر أعمالك ولكن لا يمنع من أن يكون المراد بالآية الطهارة الحسية فيكون المراد طهارة الثياب حتى تصح الصلاة فيها .

الأمر الثالث : – (والرجز فاهجر) والمراد بالرجز : – الأصنام والأوثان كما قال تعالى :– (فاجتنبوا الرجز من الأوثان واجتنبوا قول الزور) والمعنى : – اهجر الأصنام ولا تقع في عبادتها كما وقع فيها قومك وهو صلى الله عليه وسلم كان هاجرا للأصنام من صغره ولم يكره شيئا في حياته كراهيته إياها فالأمر بهجرها أمر باستمرار هجرها ولا يلزم من أمره لهجرها أن يكون غير هاجرها وإنما هذه الآية كقوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : – (يا أيها النبي اتق الله) مع أنه صلى الله عليه وسلم كان أتقى الناس لله وأخشاهم له وكقول المؤمنين في صلاتهم : – (اهدنا الصراط المستقيم) مع أنهم مهتدون .

الأمر الرابع : – (ولا تمنن تستكثر) أي : – لا تعط العطاء تستكثره سواء ما تعطيه لله أو ما تعطيه لعباد الله ، لا تستكثر جهدا تقدمه من أجل الله في الدعوة إليه ولا تستكثر تضحية تضحي بها لمصلحة الدعوة فكل ما تقدمه صغير وصغير وصغير فعليك وعلى الدعاة من بعدك أن تعلموا أن كل جهد تقدمونه وكل تضحية تبذلونها فبتوفيق الله ولولا الله ما قدمتم شيئا فلا تمنوا بما تقدمون بل اشكروا الله أن هداكم لما تقدمون فهو الذي وفقكم وهو الذي أعانكم وهو الذي اجتباكم واصطفاكم لهذه الوظيفة فاشكروا الله سبحانه وغضوا أبصاركم عما تقدمون فإن الانسان إذا نظر إلى ما يقدم استكثره وإذا استكثره ترك العطاء وبخل به والدعوة بحاجة إلى عطاء مستمر ، وإذا أعطيت أحدا شيئا من مالك أو شيئا من عملك أو شيئا من وقتك فلا تستكثره ولا تمن به عليه ولا تعط رجاء أن تأخذ أكثر مما أعطيت وليكن عطاؤك لله لا لشيء سواه .

الأمر الخامس : – (ولربك فاصبر) اصبر على مشاق الدعوة فإنها ثقيلة وشاقة جدا واصبر على ما يعترضك من عقبات وصعاب واصبر على أذى المدعوين وتكذيبهم لك وليكن صبرك لله لا لشيء آخر كما قال سبحانه : – (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) .

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى شيئا من أهوال يوم القيامة وشدته على الكافرين فقال سبحانه : –(فإذا نقر في الناقور) أي : – الصور وهذا كما قال عز وجل : – (فإذا نفخ في الصور) إلا أن ألفاظ النقر والناقور تعطي دلالة لا تعطيها ألفاظ النفخ والصور فالنقر صوت شديد يدوي فكأنه ينقر الآذان نقرا ومن ثم وصف يوم النقر بالعسر فقال تعالى : – (فذلك يومئذ يوم عسير) لا يسر فيه إلا أن عسره مقيد بالكافرين كما قال تعالى : – (على الكافرين غير يسير) ففهم من ذلك القيد أن يوم القيامة يكون يسيرا على المؤمنين إن شاء الله وهذه الآية كقوله تعالى : – (يوم يدع الداعي إلى شيء نكر خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) .

ثم تحدثت الآيات عن الوليد بن المغيرة : – وموقفه من القرآن الكريم وكيف افترى على الله كذبا وقال : – إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر فتوعده الله تبارك وتعالى أن يذيقه العذاب في طبقة من طبقات جهنم سماها سقر وعظم شأنها بالسؤال (وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر لواحة للبشر) .

قال تعالى : – (ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا) .

جاء في سبب نزول هذه الآيات عن ابن عباس رضي الله عنهما : – أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : – يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا قال : – لم ؟ قال : – ليعطوكه فإنك أتيت محمدا تتعرض لما عنده قال : – قد علمت قريش أني من أكثرها مالا قال : – فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له قال : – وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا : – " والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى وإنه يحطم ما تحته " ، قال : – لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه قال فدعني حتى أفكر فلما فكر قال : – هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره فزلت الآيات : – (ذرني ومن خلقت وحيدا) أي : – خلي بيني يا نبينا وبين هذا المخلوق الضعيف الذي أخرجته من بطن أمه وحيدا ليس معه شيء مما يعتز به الآن وجعلت له مالا ممدودا أي : – واسعا كثيرا وبنين شهودا .

قال المفسرون : – أعطاه الله تعالى عشرة من الذكور ولم يكن بحاجة إلى عملهم لكثرة ماله فأقعدهم عنده يستأنس بهم وضارب العمال بماله فكان العمال يعملون له ويأتون بكسبه وأولاده عند رأسه لا يفارقونه وهذه نعم عظيمة إلا أنه كفرها وقوله تعالى : – (ومهدت له تمهيدا) أي : – يسرت له الحياة ومكنته من سوق المال والأثاث وغير ذلك ثم يطمع أن أزيد وهو لم يعمل بموجب الزيادة وهو الشكر كما قال تعالى : – (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم) .

ثم يطمع أن أزيد وهو لم يشكر الله سبحانه وتعالى على ما سبق عنده من نعمه (كلا) وهي كلمة زجر وردع لن أزيده وكيف أزيده مع أنه كان لآياتنا عنيدا فقد كفر بآيات الله بعد إذ جاءته وكذب بما علم أنه الحق فعاند دلائل الحق وموجبات الإيمان ووقف في وجه الدعوة وحارب رسولها وصد عنها نفسه وغيره وأطلق حواليها الأضاليل وهكذا الكفار دائما لا يحملهم على الكفر إلا البغي والحسد والعناد كما قال تعالى عن فرعون وملإيه : – (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) ولذا قال موسى عليه السلام لفرعون : – (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا) وقال تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم : – (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

وبعد هذا الردع يأتي الوعيد الشديد الذي يبدل اليسر عسرا والتمهيد مشقة (سأرهقه صعودا) أي : – سأتعبه بما أكلفه به من صعود جبل في جهنم والصعود في طرقات الدنيا شاق فكيف بصعود جبل في جهنم لا خبرة للإنسان في صعوده وإنما يدفع إليه دفعا ، ولم هذا الوعيد ؟ (إنه فكر وقدر) أي : – إنما أرهقناه صعودا لأنه : – حين طلب منه أن يقول في القرآن فكر ماذا يقول وقدر أي تروى في التفكير ومن ثم دعا الله عليه بالهلاك ودعاء الله قضاء محكم (فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر) أي : – أعاد النظرة والتروي (ثم عبس وبسر) أي : – قبض بين عينيه وقطب جبينه كالمفكر في أمر يهمه (ثم أدبر واستكبر) اي : – صرف عن الحق ورجع القهقرة مستكبرا عن الانقياد للقرآن فقال بعد هذا التفكير الطويل : – (إن هذا إلا سحر يؤثر) إن هذا إلا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم (إن هذا إلا قول البشر) وما هو من عند الله قال تعالى : – (سأصليه سقر) أي : – سأغمره فيها

من جميع الجهات كما قال تعالى عن أهل النار : – (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) وقال سبحانه : – (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) وقال سبحانه : – (إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها) .

(وما أدراك ما سقر) سؤال لتهويل أمرها وتفخيم شأنها (لا تبقي ولا تذر) أي : – لا تبقي ممن يدخلها لحما ولا عظما ولا تذر منهم شيئا أبدا إنما تنسفهم نسفا وتبلعهم بلعا ثم يعيدهم الله كما كانوا كما قال عز وجل : – (كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) .

(لواحة للبشر) أي : – تلفح وجوههم لفحا فتتركها أسود من الليل البهيم كما قال تعالى : – (تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون) .

(عليها تسعة عشر) أي : – من الزبانية الموصوفين في آية أخرى بأنهم غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، قال ابن القيم رحمه الله في إغاثة الله فان : –أخبر الله سبحانه عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار (تسعة عشر) فذكر سبحانه خمس حكم ، حكمة الكافرين فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم وقوة يقين أهل الكتاب فيقوى يقينهم بموافقة الخبر في ذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلق من رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فتقوم الحجة على معاندهم وينقاد للإيمان من يرد الله أن يهديه وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والاقرار به وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به فهذه أربع حكم : –

فتنة الكفار ويقين أهل الكتاب وزيادة إيمان المؤمنين وانتفاء الريب عن المؤمنين واهل الكتاب والخامسة حيرة الكافرين ومن في قلبه مرض وعمى فيقول : – (ماذا أراد الله بهذا مثلا) .

وهذا حال القلوب عند ظهور الحق المنزل عليها : –

١) قلب يفتتن به كفرا وجهودا .

٢) وقلب يزداد به إيمانا وتصديقا .

٣) وقلب يتيقنه فتقوم عليه الحجة .

٤) وقلب يوجب الحيرة والعمى فلا يدري ما يراد به والعياذ بالله

والمراد بمرض القلب هنا : –

١) مرض الشبهات التي تجعل القلب مرتابا شاكا حائرا كما قال تعالى عن المنافقين : – (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) وقال تعالى : – (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) .

٢) وهناك نوع ثان من أمراض القلوب : – وهو مرض الشهوات التي تجعل القلب يعشق المحرمات ويرغب فيه ويحرص عليه ويبحث عن أسبابه ، وهذا هو المذكور في قول الله تعالى : – (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا) وقوله تعالى : – (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) أي : – كما أضل الله من أنكر عدد الخزنة وهدى من صدق كذلك (يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) وقوله سبحانه : – (وما هي إلا ذكرى للبشر) يعني : – النار تذكرة وعظة للبشر .

ثم قال سبحانه وتعالى : - (كلا والقمر والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقـــدم أو يتأخر) يقسم الرب سبحانه وتعالى على أن النار من الأمور العظام التي لا يجوز أن يستهان بها فيقول سبحانه : - (كلا والقمر والليل إذ أدبر) أي : - ولى (والصبح إذا أسفر) أي : - أشرق (إنها لإحدى الكبر) أي : - النار إحدى الأمور العظام (نذيرا للبشر) لمن شاء منكم أن يتقدم نحو طاعة الله عز وجل هربا من هذه النار أو يتأخر عن الطاعة بالمعصية فتخطفه كلاليب جهنم .

ويخبر الله تعالى أن كل نفس بما كسبت رهينة أي : - محبوسة مقيدة كما قال تعالى : - (كل امرئ بما كسب رهين) .

ثم يستثني فيقول : - (إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون) أي : - (إلا أصحاب اليمين) فإنهم أحرار طلقاء لم يكتسبوا مـــا يحبسهم فتغمدهم الله برحمته .

وأذن لهم في دخول جنته (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) عن المجرمين أهل النار (ما سلككم في سقر)

سؤال : -

ما هي أسباب دخولكم النار ؟ .

الجواب : -

(قالوا لم نك من المصلين) أي : - أجاب المجرمون من أهل النار مبينين أسباب دخولهم النار بقولهم لم نك من المصلين أي : - لم نتبع هذا الدين ولم نصلي كما يصلي المسلمون وفي هذا بيان لأهمية الصلاة وأنها الركن الأعظم في الدين بعد الشهادتين .

(ولم نك نطعم المسكين) أي : - ما عبدنا ربنا وما أحسنا إلى خلقه من جنسنا فقد تقدم أن الإحسان هو سبب دخول الجنة وهؤلاء لم يحسنوا فيما بينهم وبين الله ولم يحسنوا فيما بينهم وبين عباد الله فذاقوا مس سقر ، (وكنا نخوض مع الخائضين) في أي أمر وفي أي مسألة لا نبالي بالحرام ولا نتق الكفر بل كلما غوى غاو غوينا (وكنا نكذب بيوم الدين) وكانوا يقولون : - (أئذا متنا وكنا ترابـــا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون) فما زلنا على هذه الحال حتى أتانا اليقين يعني الموت الذي يقطع كل شيء وينهي كل زينة وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعبده حتى يأتيه اليقين وهو الموت فقال : - (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) .

ولما دخل صلى الله عليه وسلم على عثمان بن مضعون رضي الله عنه وقد مات قال صلى الله عليه وسلم : - " أما هو فقد جاءه والله اليقين " .

قال تعالى في حق هؤلاء المجرمين : - (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) لأن شفاعة الشافعين لأهل الكبائر من أهل لا إله إلا الله وأما من مات على غير لا إله إلا الله فما تنفعهم شفاعة الشافعين كما قال عزو جل : - (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) والعهد : - هو لا إله إلا الله ، ثم أنكر سبحانه وتعالى على المكذبين بيوم الدين إعراضهم عن التذكرة والهدى فقال : - (فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم في إعراضهم عن الحق حمر مستنفرة فرت من قسورة) شبه الله تعالى الكفار في فرارهم من الرسول صلى الله عليه وسلم وإعراضهم عن القرآن واستماع لا فيه من المواعظ بحمر وحشية جرت في ميدانها ممن طاردها من أسد أو روعها مـــن قانص أو أفزعها من صاد وفي تشبيههم هذا بالحمر مذمة ظاهرة وتسفيه وشهادة عليهم بخفة العقل .

ثم كشف الله عما في صدور القوم مما يمنعهم من الإيمان فقال عز وجل : - (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) فهـــو الحسد الذي أكل قلوب القوم .

سؤال : -

لم يختص محمد بالوحي دونهم ؟ .

الجواب : -

(لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) يرجى كل واحد منهم كتابا كما أوتي محمد كما قال تعالى : - (وإذا جاءهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله) وقال تعالى : - (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) إلى أن قالوا : - (أو ترقى في السماء و لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه) فهذا بعض ما في نفوسهم وآخر يذكره الله تعالى في قوله : - (كلا بل لا يخافون الآخرة) فهم ينفرون من الدعوة وينئون عن التذكرة لأنهم لا يخافون عذاب الآخرة لأنهم به مكذبون ولو استشعرت قلوبهم حقيقة الآخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن المريب ثم يقول تعالى : - (كلا إنها تذكرة) أي : - حقا إن القرآن تذكرة أي : - موعظة (فمن شاء ذكره) أي : - اتعظ به ولكن مشيئته مرتبطة بمشيئة الله ولذا قال تعالى : - (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) والعبد لا يعرف ماذا يشاء الله به فهذا من الغيب المحجوب عنه ولكنه يعرف ماذا يريد الله منه فهذا مما بينه له فإذا صدقت نيته في النهوض بما كلف به أعانه الله ووفقه إلى ما يرضي الله عنه ، فالعبد : - لا يتحرك ولا يسكن إلا بمشيئة الله تعالى والله سبحانه هو أهل التقوى أي : - هو أهل أن يخشى لأنه العزيز الجبار المتكبر وهو سبحانه أهل المغفرة لمن يخشاه كما قال تعالى : - (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) .

اللهم ارزقنا خشيتك في السر والعلانية واغفر لنا ذنوبنا كلها دقها وجلها وأولها وآخرها .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الاجمالي

المحاضرة العاشرة

تفسير سورة القيامة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

ثم إننا في هذا الدرس على موعد إن شاء الله تعالى مع تفسير سورة القيامة : -

سورة القيامة

وهي سورة مكية : - تعالج موضوع البعث والجزاء وتركز بوجه خاص على القيامة وأهوالها والساعة وشدائدها وحالة الإنسان عند الاحتضار وما يلقاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمشاق .

ونستطيع القول بأن السورة قد انقسمت ثلاثة أقسام : -

الاول : - القسم على أن البعث حق وعلى أن الساعة آتية لا ريب فيها وذكر بعض أهوالها .

الثاني : - ذكر القيامتين الصغرى والكبرى وحال الإنسان فيهما .

الثالث : - ذكر الأدلة على إنكار البعث .

وقد تضمنت السورة في ثناياها : - إشارة خفيفة إلى كيفية تلقي النبي صلى الله عليه وسلم للوحي عن جبريل عليه السلام .

يقول الله تعالى : - (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه) .

هكذا استفتحت السورة الكريمة : - بالقسم من الله عز وجل بيوم القيامة وبالنفس اللوامة على أن البعث حق والجزاء حق (لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة) ويوم القيامة معروف وسيأتي ذكره والحديث عنه في أثناء السورة إن شاء الله تعالى .

أما النفس اللوامة فقد قال الحسن البصري رحمه الله : - " هي نفس المؤمن إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه ما أردت بكلمتي ما أردت بأكلتي ما أردت بحديث نفسي ، وإن الفاجر يمضي قدما ما يعاتب نفسه " وعنه أيضا أنه قال : - " ليس أحد من أهل السماوات والأراضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة يعني أن المحسن يلوم نفسه على تقصيرها والمسيء يلوم نفسه على إساءتها ولكل من القولين وجه " .

(أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه) يعني : - هل يظن الإنسان أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة ؟ .

(بلى قادرين على أن نسوي بنانه) فهي القدرة لا على مجرد جمع العظام أيا كان بل على أن نسوي بنانه والبنان أطراف الأصابع وفيها البصمات التي تخص كل إنسان بحيث إن كل بصمة لا تشبه الأخرى فهو إذن الجمع الدقيق وإعادة التكوين الإنساني بأدق ما فيه .

ثم يكشف ربنا سبحانه عن العلة التي تحمل الإنسان على استبعاد البعث فيقول : - (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) إنه يريد أن يركب طريق الفجور والفسوق والعصيان ، إنه يريد أن يحقق لنفسه كل ما تشتهيه من الحلال والحرام على حد سواء فهو لذلك لا يريد أن يصدق بالبعث لأن التصديق بالبعث معناه الإيمان بالحساب والجزاء والثواب والعقاب وهذا الإيمان يصد عن طريق الفجور

ويصد عن الفسوق والعصيان وهو يريد أن يعطي نفسه حظها من الشهوات والملذات وإن كانت محرمة فلذلك هو يحاول أن يبعد عن نفسه شبح الآخرة ويحاول أن يمني نفسه لتفعل ما تشاء فلا حساب ولا جزاء ، هذه هي علة ظنه (أن نجمعه عظامه) ولذلك هو يسأل سؤال المنكر أو المستبعد (يسأل أيان يوم القيامة) (متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) (أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) فالكافر يسأل هذا السؤال للإنكار وعصاة المسلمين يسألونه للاستبعاد ليفتحوا أمام أنفسهم الأمل ويعدوها بالتوبة بعد حين فالعمر باق وباب التوبة مفتوح فليأخذوا حظهم من الشهوات المحرمة فالموت منهم بعيد والقيامة أبعد (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم و تكونوا من بعده قوما صالحين) فيا غافلا انتبه ويا طويل الأمل أقصر فالموت يأتي بغتة .

وكم من صحيح مات من غير علة *** وكم من عليل عاش حينا من الدهر

لقد كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : - " إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فقل : - الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور ، الحمد لله الذي رد علي روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره ، يا نفس اجتهدي في طاعة الله فلعل هذا اليوم آخر أيامك وإذا أمسيت فقل : - يا نفس اجتهدي في طاعة الله فلعل هذه الليلة آخر لياليك فإذا أويت إلى فراشك فقل : - باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين " .

ثم ذكر تعالى بعض أهوال يوم القيامة : - الذي ينكره المنكرون ويستبعده المستبعدون بينما هو قريب جدا كما قال تعالى : - (إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) قال سبحانه : - (فإذا برِق البصر) أي : - تقلب بسرعة والتفت يمينا وشمالا لا يستطيع أن يثبت من شدة الأهوال كما قال تعالى : - (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) وقال تعالى : - (واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين) وقوله تعالى : - (وخسف القمر) أي : - ذهب نوره (وجمع الشمس والقمر) أي : - كوّر وألقي بهما في البحار فتأججت البحار نارا موقدة وستكون هذه الأهوال كلها على مرأى ومسمع من البشر الذين تقوم عليهم الساعة فإذا رأوا ذلك حاولوا أن يبحثوا عن ملجا يلجؤون إليه ويهربون إليه (يقول الإنسان يومئذ أين المفر) فيجاب : - (كلا لا وزر) لا ملجأ ولا مفر (إلى ربك يومئذ المستقر) أي : - المرجع والمصير .

ولقد أخبر الله تعالى عباده أن لا ملجأ ولا منجى لهم من الله إلا إلى الله فقال تعالى : - (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير) وقال تعالى : - (ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين ولا تجعلوا مع الله إله آخر إني لكم منه نذير مبين) .

وقوله تعالى : - (ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) أي : - بما قدم بين يديه في حياته قبل مماته وبما أخر بعد مماته كما قال تعالى : - (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) فالمراد : - بآثارهم هنا ما أخر في سورة القيامة والمراد : - أن الإنسان يترك أثرا في الناس خيرا كان أو شرا فإذا مات أتاه ما يستحق على آثاره هذه من ثواب وعقاب ، كما في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : - " من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء " ومعنى هذا : - أنه لا يضيع من عمل العامل شيء بل كل عمل عمله فهو محصى له كما قال تعالى : - (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين) وقال تعالى : - (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء) وقال تعالى : - (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم

ربك لأحدا) وفي الحديث القدسي قال الله تعالى : – " يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجـد خـيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه " .

وقوله تعالى : – (بل الإنسان على نفسه بصيره ولو ألقى معاذيره) يعني : – أنه شاهد على نفسه عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر .

عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال : – ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو تبسم فقال صلى الله عليه وسلم : – " ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت قالوا : – يا رسول الله من أي شيء ضحكت ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : – عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول : – أي ربي أليس وعدتني أن لا تظلمني قال : – بلى فيقول : – فإني لا أقبل علي شاهدا إلا من نفسـي فيقول الله تبارك وتعالى : – أوليس كفى بي شهيدا وبالملائكة الكرام الكاتبين قال ويردد هذا الكلام مرارا قال فيختم على فيه وتتكلم أركانه بما كان يعمل فيقول بعدا لكن وسحقا عنكن كنت أجادل " .

قال الله تعالى : – (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليهم ترجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون وذلكم ظنكم الذي ظننتم بـربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) ، (وحينئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهـم الأرض ولا يكتمـون الله حـديثا) والشاهد : – أنه كان يجادل عن نفسه ويناضل عنها وهو يعلم حقيقة أمرها حتى إذا شهدت عليه جوارحه أقر واعترف وصـدق الله العظيم (بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) .

ثم أشارت الآيات : – إلى حال النبي صلى الله عليه وسلم وقت قراءة جبريل عليه السلام عليه القرآن وكيف كان يتعجل بالقراءة مع جبريل مخافة النسيان . فقال الله تعالى له : – (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) فهذا تعليم من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم في كيفية تلقي الوحي عن جبريل عليه السلام ، وكان صـلى الله عليـه وسلم إذا جاءه جبريل يخاف أن ينسى شيئا مما قرأه عليه فكان يحرك شفتيه بالقراءة قبل أن يفرغ جبريل عليه السلام من قراءته فنهاه الله عن ذلك فقال : – (لا تحرك به لسانك لتعجل به) وهذا النهي كنظيره في سورة طه حيث

قال تعالى : – (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه) فنهاه الله تعالى عن الاستعجال بالقراءة مع جبريل ثم طمأنه على ما يخاف عليه فوعده ثلاثة وعود فقال : – (إن علينا جمعه) أي : – جمع القرآن في صدرك فلا تنسى منه شيئا (وقرآنـه) أي : – وعلينا أن نجعلك تقرأه كما سمعته من جبريل من غير تحريف ولا تبديل وإذا كان كذلك (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) أي : – ما دمنا قد وعدناك بحفظه وتلاوته كما سمعته فإذا قرأ عليك جبريل فلا تعجل به بل استمع إليه حتى يفرغ .

(ثم إن علينا بيانه) أي : – بعد حفظه وتلاوته فإن لك وعدا علينا أن نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا حـتى تبينه للناس .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : – كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل جبريل عليه بالوحي كان يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه وكان يعرف منه فأنزل الله الآية التي فيه : – (لا أقسم بيوم القيامة) (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) قال : – علينا أن نجمعه في صدرك وقرآنه (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) فإذا أنزلناه فاستمع (ثم إن علينا بيانه) علينا أن نبينه بلسانك قال : – فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله .

وقوله سبحانه : – (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة) كقوله سبحانه في أول السورة : – (بل يريد الإنسان ليفجر أمامـه يسأل أيان يوم القيامة) تعليل لتكذيبهم ليوم القيامة وبيان أن العلة هي حبهم الدنيا العاجلة وإيثارها على الآخرة الباقية كما قال تعالى : –(بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) ، فيا عبد الله لا تجعل الدنيا أكبر همك واجعل الهموم هما واحدا هم الآخرة (إنما

هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار من عمل شيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهـو مـؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) .

وقوله تعالى : – (وجوه يومئذ ناضرة) أي : – حسنة بهية (مسفرة ضاحكة مستبشرة) ونضرة الوجه من نعيم القلب وسروره فالوجه مرآة القلب ، وقوله تعالى : – (إلى ربها ناظرة) أي : – تنظر إليه وتراه والايمان بالرؤية من عقيدة أهل السنة فمن أنكرها فهو حري أن يحرمها فإن إضافة النظر الى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديته بأداء إلى الصريحة في نظر العين وإحلال الكلام من قرينة تدل على خلافه حقيقة موضوعة صريحةً في أن الله أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى الرب جل جلاله .

والأحاديث في الرؤية متواترة رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن منها : – حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال : – كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال : – " إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإذا استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) " .

ومنها حديث صهيب الرومي رضي الله عنه : – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : – " إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول تبارك وتعالى : – (تريدون شيئا أزيدكم) فيقولون : – ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال : – فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى ثم تلى هذه الآية (للذين احسنوا الحسنى وزيادة) " .

ومنها حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : – " جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن " ، اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تمتعنا بالنظر إلى وجهك الكريم .

وقوله تعالى : – (ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة) أي : – أنها كالحة سوداء عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة يظنون ظن اليقين أن تنزل بهم داهية عظيمة فتهلكهم ، ولهذه الآيات نظائر في القرآن الكريم منها قوله سبحانه : – (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية) ومنها قوله تعالى : – (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) وقوله تعالى : – (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون والذين كسبوا سيئة جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما
أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

ثم ذكرهم الله تبارك وتعالى أهوال الموت وسكراته وحال الانسان ساعة الفراق فقال عز وجل : – (كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى) ففي هذه الآيات وصف لحالة الاحتضار وما يكون عندها من أهوال نسأل الله تعالى أن يهون علينا آلام الموت والسكرات وأن يثبتنا هنالك بالقول الثابت ، وقد وصف الله تعالى هذه الحالة في موضع آخر في سورة الواقعة فقال سبحانه : – (فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين) وقوله سبحانه : – (كلا إذا بلغت التراقي) أي : – إذا بلغت الروح التراقي وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق (وقيل من راق) هذا القول : – من كلام أهل الميت لما يئسوا من الطبيب والدواء سألوا عن من يرقي لهم لعل الرقية تفعل ما لا يفعله الطب والمعنى : – هل من راق يرقيه ؟

(وظن أنه الفراق) أي : – اعتقد المحتظَر أنه قد حان فراقه للأهل والأحبة وذلك حين عاين الملائكة الذين نزلـوا لقـبض روحـه فجلسوا تحت قدمه مد بصره فأهله يسألون : – (من راق) وهو حين عاين ظن أنه الفراق وأنه لا فائدة من الرقية . كما لم تكن فائدة من الدواء ونزلت الملائكة ، جلس أكثرهم تحت قدمه مد بصره وجلس ملك الموت عند رأسه ولكن لا تبصرون يـا أهـل الميـت فقبضت الروح والتفت الساق بالساق أي : – اجتمعت عليه شدة الموت وشدة الآخرة أو التفت ساقاه في الكفن إلى أين يا عبد الله ؟ (إلى ربك يومئذ المساق) كما قال تعالى : – (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين) .

ويا خيبة الكافر الفاجر الذي مات كافرا فلا صدق بالحق إذ جاءه ولا صلى كما أمره الله فاتقى عذابه ولكن كذب بالحق إذ جـاءه وتولى عن الهدى ثم ذهب إلى أهله يتمطى أي : –جذلانا أشرا بطرا كسلانا لا همة له ولا عمل كما قال تعالى : – (وإذا انقلبـوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين) ولكن الله يهددهم بما يكدر صفوهم وينغص عيشهم فيقول : – (أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى) وكلمـة أولى لك كلمة موضوعة للتهديد والوعيد وقد كررت ها هنا : – لمزيد التأكيد على الوعيد الشديد .

ثم ينكر الله سبحانه وتعالى على الإنسان ظنه أن الله لن يرجعه إليه فيقول سبحانه : – (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) سبحانك بلى .

فقوله تعالى : – (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) أي : – يهمل في الدنيا فلا يؤمر ولا ينهى أو يهمل بعد الموت فلا يبعث (أيحسب الإنسان أن يترك سدى كلا) فلا بد أن يؤمر وينهى في الدنيا ولابد أن يبعث بعد الموت ليجزي الله كل نفس ما كسبت (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) ، وإن ارتاب الانسان في البعث بعد الموت فلينظر في نفسه (ألم يكن نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) سبحانك بلـى ، فالنشـأة الأولى دليل النشأة الثانية (كما بدأنا أول خلق نعيده) والآيات في ذلك كثيرة ، يقول سبحانه : – (وهو الذي يبدئ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) ويقول سبحانه : – (ويقول الإنسان أئذا مـا مـت لسوف أخرج حيا أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) ويقول سبحانه : – (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) فتعلمون أن الذي أنشأكم أول مرة قادر على أن ينشأكم المرة الثانية ليجزي كل نفس بما كسب ويوفي كل نفس ما عملت .

ولما جاء أحد الكافرين إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه قطعة من العظم بالية فتركها في يديه بين كفيه ثم ذرها في الهواء وقال : – يا محمد تزعم أن ربك يحيي هذا العظم بعدما رم قال صلى الله عليه وسلم : – " نعم و يبعثك ويدخلك جهنم " وفيه أنزل الله تبارك وتعالى خواتيم سورة يس : – (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيـي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون) وقال الله تعالى : – (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليهـا الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) .

فهنيئا لمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن البعث حق وأن الحساب حق وأن الجنة حق وأن النار حق فعمل لما ينجيه من النار ويدخله الجنة .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من المؤمنين الصالحين الموفقين وأن يجيرنا من النار وأن يدخلنا الجنة برحمته إنه ولي ذلك والقادر عليه .
هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الاجمالي

المحاضرة الحادية عشرة

تفسير سورة الإنسان

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير سورة الإنسان .

سورة الإنسان

وهي سورة مكية ، تعرف الإنسان بنفسه ، من هو ؟ ، ومن أين جاء ؟ ، ولماذا جاء ؟ ، وإلى أين ينتهي ؟ ، وماذا بعد النهاية ؟ ، هذه الأسئلة التي حارت فيها أفهام ، وضل بسببها أقوام ، فهدى الله الذي آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشـــاء إلى صراط مستقيم ، وقد أوجزت السورة في ذكر عذاب الكفار ، وأطالت في ذكر نعيم الأبرار .

ثم ختمت بالحديث عن القرآن : – وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على يلقاه من المكذبين من الأذى ، فإن الله قادر علـــى أن يبدل خير منهم وما ذلك على الله بعزيز ، فلو أن إنساناً حائراً ، شاكاً ، متردداً ، قرأ هذه السورة ، أو استمع إليها ، وهو متره قلبه عن الهوى ، والعصبية ، والحمية الجاهلية ، ما تردد بعدها لحظة ، ولا شك بعدها برهه ، فإنها كلام الله ، ومن أصدق من الله قيلا ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

قال الله تعالى : – (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـــاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

فقوله تعالى : – (هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا) هذا سؤال للتقرير ، ومعناه : – قد أتى على الإنسان زمانٌ لم يكن شيئا مذكوراً ، كما تقول لمن أكرمته ، هل أكرمتك ؟ ، وتقول لمن أحسنت إليه ، أأحسنت إليك ؟ ، كل مولود له تاريخ ميلاد ، فأين كان قبل ذلك التاريخ ؟ لم يكن شيئا مذكوراً ، كان عدماً ، إذاً من أين جاء الإنسان ؟ من العدم ، ومن الذي جاء به ؟ (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ) فالذي جاء بالإنسان من العدم إلى الوجود هو الله ، أم خلقوا من غير شيء ؟ مستحيل ، أم هم الخالقون أنفسهم ؟ أيضا مستحيل ، هل ادعى أحد أنه خلق نفسه أو غيره ؟ لا ، بل الكل متفق على أن الخالق هو الله ، قال الله تعالى : – (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) الزخرف الآية ٨٧ ، والله تعالى ، خلق الإنسان الأول آدم من طين ، أما الإنسان المذكور هنا ، فالمراد به بنو آدم ، والله يقول : – (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ) أي : – من نطفة ، مختلطة ، والمراد بهـــا : – نطفـــة

الرجل ، ونطفة المرأة ، كما قال تعالى : – (فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) الطارق الآية ٥ – ٧ ، والمراد بالصلب : – صلب الرجل ، والمراد بالترائب : – ترائب المرأة ، قال الله تعالى : – (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) السجدة الآية ٧– ٨ ، وقال تعالى :– (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) المؤمنون الآية ١٢– ١٤ .

ولماذا خلق الله الإنسان ؟

قال تعالى : – (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ) أي : – لنختبره ونمتحنه ، كما قال تعالى : – (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا) الملك الآية ٢ ، إذا لم يخلق الله الخلق عبثاً ، وما كان ليتركهم سدى ، بل خلق الخلق ، ليختبرهم ويمتحنهم ، بالأمر والنهي ، كما قال تعالى سبحانه : – (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ) الذاريات الآية ٥٦ ، أي : – إلا لآمرهم بعبادتي ، فمن أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني دخل النار ، وحتى يتمكن الإنسان من معرفة ما خلق له ، والقيام به ، أعطاه الله تعالى ، وسائل المعرفة والعلم والإدراك ، وهي المذكورة في قوله سبحانه : – (فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) فبالسمع ، يستمع إلى آيات الله المقروءة ، وبالبصر يتأمل آيات الله المنظورة ، فيؤمن به ويعبده ، وهذا كقوله سبحانه : – (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) النحل الآية ٧٨ ، ومع هذه الوسائل أعطاه الله تعالى القدرة على سلوك أي السبل شاء ، سبيل الله أو سبيل الشيطان ، ثم بعد ذلك كله ، أرسل إليه الرسل ، مبشرين ومنذرين ، لألا يكون لله على الناس حجة بعد الرسل ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيي عن بينة .

قال تعالى : – (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) ، والمراد بالهداية هنا : – هداية البيان والإرشاد ، فالله تعالى قد هدى الإنسان ، أي : – بين له طريق الخير ، وطريق الشر ، وأرشده إلي طريق الخير ، وحذره من طريق الشر ، كما قال تعالى : – (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) البلد الآية ١٠ ، أي الطريقين : – طريق الخير ، وطريق الشر ، وهذه الهداية ، هداية البيان والإرشاد يقوم بها الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم ، فمن قبلها منهم واتبعهم ، منّ الله عليه بالهداية الثانية ، وهي هداية التوفيق ، وهو للخلق قدرة الطاعة ، ومن رفض هداية الأنبياء وكذب وتولى ، حقت عليه كلمة العذاب ، كما قال تعالى : – (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) فصلت الآية ١٧ ، والهداية هنا : – هي هداية البيان والإرشاد ، التي هداهم لها أخوهم صالح عليه السلام ، ولكنهم آثروا الباطل على الحق ، فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون .

وقوله تعالى : – (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) يعني : – أن الإنسان بعد بيان الأنبياء له ، وهداياتهم إياه أن يتبعهم على ما جاءوا به من الهدى ، ومن الحق ، فيكون شاكر ، وإما أن يتولى عنهم ويرفض الذي جاءوا به ، فيكون كفورا ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غني حميد .

فإن قيل : – لما جمع الله تعالى ، بين الشاكر والكفور ، ولم يجمع بين الشكور والكفور ، مع اجتماعهما في المبالغة ، فالجواب أنه سبحانه ، إنما جمع بين الشاكر والكفور ، نفياً للمبالغة في الشكر ، وإثباتا لها في الكفر ، لأن شكر الله تعالى لا يؤدى كامل فانتفت عنه المبالغة ، ولم تنتفي عن الكفر لأنه كثير ، فقل شكر لكثرة النعم ، وكفرهم وإن قل فكثير لكثرة الإحسان إليه .

قال الله تعالى : – (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلا وَأَغْلالا وَسَعِيرًا * إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا) إنا اعتدنا سلاسل وأغلالاً وسعير، السلاسل : – قيود الأرجل ، والأغلال : – قيود توضع في الأيدي وتضمها إلى الأعناق ، كما قال تعالى : –

(إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ) غافر الآية ٧١ ، في الحميم ثم في النار يسجرون ، وقد ذكر سبحانه وتعالى طول السلسلة الواحدة فقال : – (ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ) الحاقة الآية ٣٢ ، وأما السعير : – فهو اللهب والحريق في نار جهنم ، وحسبهم هذا .

أما الأبرار فقد فصل رب العالمين سبحانه ما أعد لهم من النعيم ، وأطال في ذكره ، ووصف ما أعد لهم فقال : – (إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا) الأبرار : – جمع بار من البر ، والبر : – اسم جامع للخير كله ، كما قال تعالى : – (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) البقرة الآية ١٧٧ .

أولئك الأبرار يشربون في الجنة من كأس كان مزاجها كافور ، والكافور : – أطيب الطيب .

قال العلماء : – كان الناس إذا شربوا الخمر ، وضعوا عليها شيئا من الكافور ، لتطيب رائحتها ، فذكر الله تعالى أن الأبرار يشربون في الجنة ، من الخمر لا يصدعون عنها ولا يترفون ، وهي مع ذلك ، قد مزجت بالكافور زيادة في طيبها ، بينما المقربون يشربون من الكافور الخالص ، غير الممزوج ، كما قال سبحانه : – (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) .

والأبرار : – هم المقتصدون ، بينما المقربون : – هم السابقون في الخيرات ، الذين اجتهدوا الطاعات فرضها ونفلها ، واجتنبوا المحرمات وغيرها من المكروهات .

ثم ذكر الله تبارك وتعالى شيئا من أعمالهم : – أعمال البر التي قاموا بها ونالوا بها هذا الأجر والثواب ، فقال تعالى : – (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ) فإذا ألزموا أنفسهم شيئا من الطاعات غير اللازمة ، أوفوا بما التزموا به ، وإذا أدوا ما ألزموا به أنفسهم من الطاعات ، فلا بد أنهم أكثر أداء ، وأكثر وفاء لما ألزمهم به الله سبحانه .

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا) أي : – منتشراً عاماً في كل الناس إلا من رحم الله .

قال قتاده : – استطار والله شر ذلك اليوم ، حتى ملأ السموات والأرض .

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) وهذا مما ينال به البر كما قال الله تعالى : – (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) آل عمران ٩٢ ، وإذا كان إطعام الطعام على حبه محموداً ، فإن الإيثار أعظم منه حمد ، قال تعالى : – (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) الحشر الآية ٩ ، فالذي يطعم الطعام على حبه ، قد لا يكون محتاجاً إليه ، أما الذي يؤثر على نفسه فهو محتاج لما يؤثر به غيره ، وهذا أمر لا تطيقه كل النفوس ، وإطعام الطعام ، عمل من أعمال البر ، ولكن أعمال البر لا تنفع ، إلا إذا أريد بها وجه الله ، ولذا قال الأبرار : –إنما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاءا ولا شكورا ، فقد يطعم الرجل طمعاً في أن يطعم ، وقد يعطي ، طمعاً في أن يأخذ ، وقد يطعم طمعا في المدح والثناء ، ولكن الأبرار ، يطعمون الطعام على حبه ، يرجون رحمة الله ، كما قال تعالى : – (فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى) الليل الآية ١٤ – ٢١ .

وقوله تعالى : – (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا) .

قال مجاهد وسعيد ابن جبير : – أما والله ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم فأثنى عليهم به ، أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين .

وقوله تعالى : - (إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) بيان لعلة إطعام الطعام لوجه الله ، فهم يخافون يوماً ضيقاً شديداً ، كان شره مستطير ، فهم يوفون بالنذر ، ويخافون يوماً كان شره مستطير ، ويطعمون الطعام على حبه ، مسكيناً ويتيماً وأسير ، عسى الله أن يقيهم شر ذلك اليوم ، وقد وقاهم ، كما قال تعالى : - (فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) لقد كانوا يخافون شر ذلك اليوم ، فوقاهم الله شر ، ذلك اليوم ، وهذه وحدها كافية ، ولكن الله زادهم من فضله ، ولقاهم نضرة في وجوههم ، وسرورا في قلوبهم ، والقلب إذا سر استنار الوجه ، وجزاهم بما صبروا على طاعته ، وعن معصيته ، وعلى قدر جنة عالية قطوفها دانية ، وحرير كما قال تعالى : - (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) الحج الآية ٢٣ - ٢٤ .

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ) والاتكاء جلسة الاستراحة ، وعنوان خلو البال وطمأنينة الفؤاد ، وكل ما حولهم يعين على ذلك ، لا يرون فيها شمساً يزعجهم حرها ولا زمهريراً يؤذيهم برده ، ودانية عليهم ظلالها أي : - قريبة إليهم أغصانها ، وذللت قطوفها تذليلا ، بحيث إنه إن قام ارتفعت معه ، وإن قعد تذللت له ، وإن اضطجع تذللت له . كما قال مجاهد رحمه الله .

(وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا) فبينما الأبرار متكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة ، والقطوف الدانية ، يطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير ، قوارير من فضة قدروها تقديراً ، أي : - يطوف عليم الخدم بآنية الطعام ، وأكواب الشراب ، وأكواب الشراب قوارير ، والقوارير لا تكون إلا من زجاج ، فهذه الأكواب من فضة في شفافية الزجاج ، يرها ما في باطنها من ظاهرها ، وهذا مما لا نظير له في الدنيا .

كما قال ابن عباس رضي الله عنهما : - ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم مثله في الدنيا ، إلا قوارير من فضة ، ومعنى قوله سبحانه : - (قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا) يعني : - أن هذه الأكواب جاءت على قدر الحاجة ، بحيث لا تبقى باقية ، ولا يطلبون زيادة ، (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلا) وقد سبق قوله تعالى : - (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا) فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور ، وتارة يمزج بالزنجبيل .

بينما المقربون يشربون من كل منهما صنف ، ولذا قال تعالى هنا : - (عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلا) وقد سبق قوله سبحانه : - (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) ومعنى قوله : - (عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلا) يعني : - أن الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلا ، لسلالة سيلها وحدة جريها ، (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ) يعني : - أن الذين يطوفون على الأبرار بآنية من فضة ، وأكواب كانت قوارير غلمان ليس لهم آباء ولا أمهات ، إنما كانوا بكلمة كن ، خلقهم الله لخدمة أهل الجنة ، كما خلق الحور العين ، لا يشيبون ، ولا يهرمون ، ولا يموتون بل ولدان مخلدون ، إذا رأيتهم وهو يطوفون على الأبرار ، (حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا) ، وذلك لصباحة وجوههم ، وحسن ثيابهم ، وألوانهم ، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن ، فإذا كان هؤلاء الخدم ، فما بالك بالسادة المخدومين ، (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا) وذلك أن أدنى ملك في الجنة ، عشرة أمثال الدنيا .

كما في الصحيح عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال : - قال النبي صلى الله عليه وسلم : - إني لأعلم أخر النار خرجاً منها ، وأخر أهل الجنة دخول ، رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله له : - اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملئ ، فيرجع فيقول يا رب وجدتها ملئ ، فيقول اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملئ ، فيرجع فيقول يا رب وجدتها ملئ ، فيقول اذهب

فادخل الجنة فإن لك الدنيا وعشرة أمثلها ، فيقول : – تسخر مني أو تضحك مني وأنت الملك ، قال : – فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه ، وكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة مترلة .
ولذلك قال الله تعالى : – (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ) هذه أنواع من الحرير الذي يلبسونه ، والسندس : – هو رفيع الحرير ، كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم ، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان ، وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس (وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ) يعني : – الأبرار المقتصدون أما السابقون المقربون فيحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ .

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : – " جنتان من فضة ، آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب ، آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم ، إلا رداء الكبرياء في وجهه في جنة عدن ، فالجنتان من فضة للأبرار ، والجنتان من ذهب للمقربين ، ولما ذكر سبحانه زينة الظاهر بالحرير والحلي " .
قال بعده : – (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا) أي : – طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى ، وسائر الأخلاق الرذيلة ، فكانوا في الجنة إخواناً على سرر متقابلين .
وقوله تعالى : – (إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا) ، كقوله تعالى : – (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) الحاقة الآية ٢٤ ، وقوله تعالى : – (وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الأعراف الآية ٤٣ ، وهذا النداء يزيدهم نعيما فوق النعيم الذي هم فيه ، حيث يحمدون عاقبة سعيهم ، حين يرون جزائه ويسمعون هذا القول العذب الحلو (إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا) .
ثم يقول سبحانه مبيناً أن القرآن الكريم كلام الله رب العالمين ، وليس كلام محمد صلى الله عليه وسلم فيقول عز وجل : – (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلا) لقد أنكر المشركون تتريل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، وقالوا : – أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليهم بكرة وأصيل ولذلك كثر في القرآن ذكر مصدره الوحيد الذي نزل به ، كقوله تعالى : – (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) ، (تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، (تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) ، (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وقال ها هنا : – (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلا) فإذا علم أن الله هو الذي نزل عليك الكتاب الحق ، (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ) أي : – كما أكرمك بما أنزل عليك ، فاصبر على قضائه وقدره ، واعلم أنه سيدبر أمرك بأحسن التدبير ، فإن الأمور كلها مرهونة بقدر الله ، وهو يمهل الباطل ، ويطيل أمد المحنة على المؤمنين والابتلاء والتمحيص ، وهذا يستدعي الصبر ، كل أولئك لحكمة يعلمها ، يجري بها قدرة ، وينفذ بها حكمه ، فأمر الله تعالى بالصبر حتى يجيء موعده المرسوم ، الصبر على الأذى والفتنة ، والصبر على الباطل يغلب ، ثم أمره اصبر أكثر على ما أوتيته من الحق ، الذي نزل به القرآن عليك ، اصبر ولا تستمع إلى ما يعرضونه من المصالحة والمداهنة على حساب العقيدة ، ولا تطع منهم أثما أو كفورا ، فهم لا يدعونك إلى طاعة ولا إلى بر ، ولا إلى خير ، بل هم آثمون كفار ، يدعونك إلى شيء من الإثم والكفر ، إذا حين يدعونك إلى المصالحة والمداهنة ، وحين يعرضون عليك ما يظنونه يرضيك ويغيرك ولا تطع منهم آثما ولا كفورا فإنه لا لقاء بينكم وبينهم ، ولا يمكن أن يكون لقاء بينك وبينهم ، لأنه هناك أموراً تفصل منهجك من منهجهم وحقك عن باطلهم ، وإيمانك عن كفرهم ، ونورك عن ظلماتهم ، ومعرفتك بالحق عن جهلهم به ، والصبر كما يقولون مر ، وقد يصبر الإنسان سنة أو سنتين ، ثم إذا طالت المدة ربما نفذ صبره ، ولذلك أرشد الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، إلى ما يستعين به على الصبر ، فقال : – (وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلا وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلا طَوِيلا) فالمادة التي الصبر وتزيده هي ذكر الله ، فعلى الدعاة أن يصبروا على الأذى والتكذيب وطول المدة وتأخير النتائج وعليهم ألا

يستعجلوا ، فمن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، وعليهم أن يعلموا أنه لا يلزم أن يجنوا ثمرة دعوهم ، بل قد يجنيها غيرهم ، كما أنه كثيراً ما يزرع الرجل ويأكل غيره ، فليدعو إلى الله وليتركوا الأمور لله يدبرها بحسن تدبيره ، وعليهم أن يستعينوا على الصبر بذكر الله بكرة وأصيل ، يعني : – أول النهار وأخره ، وبالتسبيح بحمد الله بالليل والناس نيام . وهذه الآيات كقوله تعالى : – (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) ، (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ) وكقوله تعالى : – (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) وكقوله تعالى : – (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلا نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلا) وهكذا يقضي الداعية نهاره في الدعوة فتواجهه عقبات وتواجهه مشاكل ، فإذا جنه الليل ، وأوى الناس إلى فرشهم أوى هو إلى ربه فقام بين يديه يشكوا إليه بثه وحزنه ، ويستمد منه العون ، فهو الذي يعين الدعاة ويلهمهم الصبر ، لأن الدعوة دعوته وهو الذي كلف بها ، فلا بد أن يعين الدعاة وينصرهم ثم قال تعالى منكراً على الكافرين حبهم الدنيا ونسيانهم الآخرة ، إن هؤلاء الذين يصدون عن سبيل الله ويبتغونها عوج ، والذين ودوا لو تدهن فيدهنون ، هؤلاء الذين نهاكم ربك عن طاعتهم يحبون العاجلة أي الدنيا ، ويزرون ورائهم يوماً ثقيل ، يوماً عبوساً قمطريراً ، يوماً كان شره مستطير ، وهم في قبضة الله وأسره ، قضاؤه نازل بهم ومشيئته نافذة فيهم ، ولو شاء لذهب بهم كما قال سبحانه : – (نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلا) وما هم بمعجزين .

وأخيراً يجيء الختام مذكراً بالفرصة المتاحة للعباد ، (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ) إن هذه السورة تذكرة ، (فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا) أي : – فمن شاء سلك سبيل الرحمة ، ومن شاء سلك سبيل الشيطان ، كما قال تعالى : – (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) ولكن مشيئة الخلق ليست مطلقة ولكنها مقيدة بمشيئة الله تعالى ، ولذا قال سبحانه : – (وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ) إن الله كان عليما بمن يقبل الهداية ومن يصلح لها فيؤهله لها ويأخذ بيده إليها حكيماً فلا يضع الهداية في محل لا يقبلها ، وبعلمه سبحانه وتعالى وحكمته يدخل من يشاء في رحمته ، والظالمين الكافرين المشركين أعد لهم عذاباً أليم .

اللهم أدخلنا في رحمتك ، ولا تجعلنا مع القوم الظالمين .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الإجمالي

المحاضرة الثانية عشرة

تفسير سور المرسلات والنبأ والنازعات

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آلـــه وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير ثلاث سور وهي : المرسلات ، والنبأ ، والنازعات .

سورة المرسلات ، والنبأ ، والنازعات .

سورة المرسلات

وموضوعها كلها واحد وهو البعث بعد الموت : – وأدلة إمكانه ، وبراهينه ، وأحوال المكذبين به ، والمؤمنين .

وقد استفتحت المرسلات والنازعات : – بالقسم المتكرر من الله عز وجل ، على إن البعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها .

واستفتحت النبأ : – بالإنكار على المكذبين الذين يسألون أيان يوم الدين .

قال الله تبارك وتعالى : – (وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) .

اختلف العلماء في المقسم به هنا : – ما هو ولعل أرجح الأقوال أن المراد بالمرسلات والعاصفات والناشرات الرياح لقوله ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته فالرياح مرسلة ، ومعنى قوله تعالى : – (وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا) أي : – الرياح حين ترسل متتابعة شيئاً فشيئا .

ثم تزداد حتى تكون عاصفة ، فتنشر السحاب في السماء كما يشاء الله عز وجل .

وأما الفارقات والملقيات : – فهي الملائكة ، تنزل بالوحي فتلقيه إلى الأنبياء فترق به بين الحق والباطل .

ومعنى قوله تعالى : – (عُذْرًا أَوْ نُذْرًا) أن هذا الذكر وهو الوحي ، الذي تتنزل به الملائكة على من اصطفى الله تعالى من البشـــر ، عذرا للناس لألا تكون لهم الحجة من بعده ، ونذراً لهم إن خالفوا أمره ، وفي هذا القسم تفخيم لشأن المقسم به ، وتعظيم لأمر المقسم عليه ، وهو (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) إن ما توعدون من البعث والحساب والجزاء والجنة والنار ، لابد أن يقع ، ولابد أن يكون ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى ، ويوم يقع ما يعادون ، تكون الأهوال التي تغير معالم الكون .

(فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ) أي : – ذهب ضوءها ، (وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ) أي : – فتحت فكنت أبواب ، (وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ) كما قال تعالى : – (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيزرها قاع صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا) .

(وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ) أي : – أجلت ، (لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ) بينهم وبين أممهم ، كما قال تعالى : – (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ) وكما قال : – (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ) يعني : – الأمم (فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) وقال تعالى : – (وَلِكُلِّ أُمَّـــةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ) وقوله تعالى : – (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ) سؤال لتفخيم أمــره ، وتعظيم شأنه ، ثم قال تعالى : – (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) يعني : – للمكذبين بيوم الدين ، المكذبين بيوم الفصل ، المكذبين بيوم القيامة

، ويل لهم يوم يخرجون من الأجداث صراعا كأنهم إلى نصب يوفدون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ويل لهم يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا ، أم أنت لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون .

وقد تكرر هذا الوعيد في هذه السورة عشر مرات ، ثم لفت الله سبحانه وتعالى ، أنظار المكذبين إلى مصارع الغابرين ، لعلهم يتقون ، أو يحدث لهم ذكر ، فقال عز وجل : – (أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ) يعني من المكذبين ، كما قال عز وجل : – (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ) (أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ) ممن أشبههم كقوم عاد ، وثمود ، وأصحاب مدين ، والمؤتفكات ، (كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ) دائما ، فالله سبحانه وتعالى قادر على إهلاك المكذبين من هذه الأمة ، كما أهلك الأولين ، ولكنه سبحانه ، هو الحليم ، يصبر على أذى عباده ويمهلهم ، فإن تابوا وإلا أهلكهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) .

ثم لفت الله سبحانه وتعالى أنظارهم إلى بعض مظاهر قدرته ، التي تدل على أنه يحي الموتى ، ويبعث من في القبور ، فقال عز وجل : – (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ) أي : – ضعيف حقير ، (فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ) وهو الرحم الذي يظل مفتوحاً فإذا استقر فيه الماء أغلق ، (إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ) كما قال سبحانه : – (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيظ الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار) فمن النساء من تضع لستة أشهر ، ومنهن ما تضع لتسعه ، ومنهن من يسقط ما في بطنها ناقصا ، ذلك تقدير العزيز العليم ، ولذا قال : – (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ، سبحانك بلى ، فهذه آية لهم على إمكان البعث ، وآية أخرى : – (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا) تحملكم فوق ظهرها أحياء ، وفي بطنها أموات ، فهي لكم كالأم تحمل في بطنها وعلى ظهرها ، وكلا الحالين نعمة ، فاستقرار الأرض ، وشقي الناس منها نعمة ، ودفنهم فيها بعد موهم نعمة ، كما قال تعالى : – (قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فاقبره) ولم يجعله عرضة للسباع والبهائم كسائر الأموات ، وقوله تعالى : – (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ) كقوله تعالى : – (وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم) وقوله سبحانه : – (وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا) أي : – عذباً سلسبيلا ، ولو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ، ويل يومئذ للمكذبين ، بعد أن أريناهم هذه الآيات ، الدالة على قدرة الله وعظمته.

ثم يقول الله تعالى لأهل النار : – (انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) لقد حبسوا للسؤال ، كما قال تعالى : – (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله) فأهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، ولما سألوا قيل لهم ، ولكن إلى أين ، (انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) ، فلو ظلوا في الحبس أبداً لكان خيراً لهم ، ثم يوضح حقيقة ما ينطلقون إليه فيقول : – (انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ) يعني : – لهب النار إذا ارتفع وصعد منه الدخان فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب (لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ) فتسميته ظل إنما هي للتهكم والاستهزاء ، (إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ) أي : – إن الشرارة الواحدة بحجم البيت الكبير من الحجر ، فإذا تتابع الشرر ظهر وكأنه (جِمَالَتٌ صُفْرٌ) أي : – كالإبل ترتع هنا وهناك ، وإذا كان هذا هو الشرر ، فكيف بالنار التي ينطلق منها .

(صُفْرٌ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ) أي : – لا يتكلمون ، كما قال سبحانه : – (يوم يقوم الروح والملائكة لا يتكلمون الا من إذن له الرحمن وقال صوابا) ،(وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ) لأنهم قد قامت عليهم الحجة ، (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ) بين العباد فيما كانوا فيه يختلفون ، جمعناكم معشر المكذبين ، والأولين من السابقين ، كما وعدناكم قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم وهاهو الجمع قد تم .

(جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ) ، أي : – إن قدرتم أن تتخلصوا من غضبتي ، وتنجو من حكمي فافعلوا ، وهيهات هيهات ، (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) .

ثم ذكر تعالى جزاء المصدقين بيوم الدين فقال : – (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ) كما قال عز وجل : – (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) .
ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : – " إن في الجنة شجرة ، يسير الراكب ، الجواد المضمر السريع ، مئة عام لا يقطعها " .
أما العيون فقد سبق الحديث عنها في سورة الإنسان ، كما قال عز وجل : – (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا) وقال سبحانه : – (ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا عينا فيها تسمى سلسبيلا) ، وقوله تعالى : – (وفواكه مما يشتهون) كما يقال لهم : – (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) .
ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين فإنهم يقال لهم : – (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ) ولو تمتعوا الدهر كله ، لكان قليلا ، كما قال سبحانه : – (أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغناهم ما كانوا يمتعون) .
(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) . ثم ذكر سبحانه استكبار المكذبين عن عبادته ، فقال : – (لِّلْمُكَذِّبِينَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ) أي : – إذا أمروا أن يركعوا مع الراكعين استكبروا ، ولهذا توعدهم فقال : – (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ) ثم قال عز وجل : – (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ) أي : – إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن ، فبأي كلام يؤمنون ، فمعناه لا يؤمنون ولو كفروا بهذا القرآن ، وهذه الآية كقوله تعالى : – (فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون) .

أما سورة النبأ

أما سورة النبأ ، فقد استفتحها الله تبارك وتعالى : – بهذا السؤال للاستنكار على المكذبين بيوم الدين ، فقال عز وجل : – (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ) عن أي شيء يتساءلون : – أيتساءلون (عن النبأ العظيم) الظاهرة براهينه ، الواضحة دلائله وآياته ، وهو البعث بعد الموت ، (الذي هم فيه مختلفون) ، فمنهم مؤمن به وكافر ، ثم قال : – (كلا) ، وهي كلمة زجر ووعيد (كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) عاقبة التكذيب ، (ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) ولم يذكر المعلوم حتى تذهب العقول فيه كل مذهب ، فيكون ذلك أشد تأثيراً في النفس مما لو ذكر المعلوم ، فلو ذكر المعلوم لهان عليهم ، فحذفه حتى يكون وقع التهديد أشد على أنفسهم .

ثم الله تبارك وتعالى أن زارهم إلى مظاهر قدرته ، التي تدلهم على أن الله يحيي الموتى ، ويبعث من في القبور ، فقال سبحانه : – (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا) أي : – ممهدة سهلة ذلولة ، (وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) للأرض كأوتاد الخيمة التي تثبت بها ، حتى لا تقلعها الرياح ، كما قال عز وجل : – (وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم) ، (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا) أي : – ذكر ، وأنثى ، يتمتع كل منهما بالأخر ، ويحصل التناسل .
(وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا) أي : – قاطع للحركة ، لتحصل الراحة من كثرة السعي في المعايش ، (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا) يغشي الكون بظلامه حتى تستريحوا فيه (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) أي : – مشرقاً نيراً ، لتغدوا وتروحوا في طلب المعاش وكسب التجارة ، وغير ذلك من مصالحكم .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا) أي : – السماوات السبع ، الذي خلق سبع سماوات طباق ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر . هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ، (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا) يعني : – الشمس ، (وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ) وهي السحاب (مَاء ثَجَّاجًا) أي : – كثيراً متتابعاً ، (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا) أي : – مجتمعه ، كما قال عز وجل : – (هو الذي من السماء ماء لكم منه شرابا ومنه شجر فيه تسمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) .

فلو تأمل الإنسان حق التأمل ، في هذه الآيات الكونية ، السماء وارتفاعها ، والأرض وسعتها ، والجبال وعلوها ، وما في السماء من شمس وقمر ، وما يعقبها من ليل ونهار ، ولو تأمل الإنسان في نفسه هو ، ولو تأمل في المطر يترل من السماء فيحي الأرض الميتة بإذن الله ، لو تأمل الإنسان حق التأمل في هذه الآيات الكونية ، والإنسانية ، لعلم أن الله يحيي الموتى ، ويبعث من في القبور .

ثم قال تعالى : – (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا) يعني : – أن الله سبحانه وتعالى وقت ليوم القيامة وقتاً معلوم ، فلا يسبقه ، ولا يتأخر عنه ، كما قال عز وجل : – (ذلك يوم مجموع له الناس) وذلك يوم مشهود ، (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا) ، ثم ذكر الله تبارك وتعالى ، جزاء المكذبين بيوم الدين ، فقال : – (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآبًا) يعني : – أن جهنم هي مآب الظالمين المكذبين بيوم الدين ، ومرجعهم ، وهي نزلهم الذي يعد لهم بينما ينصرفون من أرض المحشر .

(لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا) جمع حقب : – وهي أحقاب دائمة لا تنتهي ، كلما مضي حقب تبعه آخر ، يريدون أن يخرجوا من النار ، وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم ، لا يذوقون فيها برداً يخفف عنهم حرها ، ولا شراباً يذهب عنهم ظمأهم .

(إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا) قال أبو العالية : – استثنى من البرد الحميم ، ومن الشراب الغساق ، والحميم هو الماء الحار الذي انتهى حره وحموه ، والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النهار ، وعرقهم ، ودموعهم وجروحهم ، فهو بارداً لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه .

وقوله تعالى : – (جَزَاء وِفَاقًا) أي : – كان هذا الجزاء ، جزاء موافق لأعمالهم ، ولم يظلمهم الله شيئا ، وذلك أنهم كانوا لا يرجون حساب ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا أئذا متنا وكنا تراب وعظام ، أإنا لمبعوثون ، أو أبائنا الأولون ، (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا) أي : – كذبوا بآيات الله التتريليه ، وبآيات الله التكوينية ، والحال أن الحفظة قد سجلت عليهم أعمالهم كلها ، وأقوالهم دقها وجلها ، وكل شيء أحصيناه كتاب ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ، وهذا القول أشد على أنفسهم من العذاب ، فإن الرجل إذا عوقب بالحبس مع الأعمال الشاقة يخفف عنه العذاب تحديد المدة ، فهو يعد ويعد ومهما كانت المدة طويلة فإن تحديدها يهونها عليه ، ولكن أهل النار لابسين فيها أحقابا ، ثم يقال لهم : – فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ، فيقطع هذا القول عليهم كل أمل ، ويغلق عليهم كل باب رجاء ، ولما ذكر الله تعالى حال المكذبين بيوم الدين في النار ، أتبعه بذكر حال المؤمنين المصدقين في الجنة ، فقال تعالى : – (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا) والكواعب هن الشابات النواهد ، اللاتي لم يتدلى ثديهن ، لأنهن أبكار عرب أتراب ، أي ذوات سن واحدة كلهن شباب وفتوة ، وحيوية وقوة ، وقوله تعالى : – (وَكَأْسًا دِهَاقًا) أي : – مملوءة متتابعة ، (لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا) أي : – ليس في الجنة كلام لا غ عاري عن الفائدة ، وليس فيها كلام كذب يوجب الإثم ، لأنهم في دار السلام لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاما سلام ، وكان هذا (كِذَّابًا جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ) الذي شملت رحمته كل شيء ، ووسعت كل شيء ، لا يملكون منه خطاب أي : – لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته عز وجل إلا بإذنه (خِطَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لّا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) ، والروح : – هو جبريل

الأمين عليه السلام ، فجبريل عليه السلام يقوم يوم القيامة مع الملائكة ولا يملك الكلام إلا أن يأذن له الرحمن ، ذلك اليوم الحق الذي يكذب به المجرمون ، وهو كائن لا محالة ، وهذه مساكن الناس فيه فريق في الجنة ، وفريق في السعير .
(فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا) ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، وليس هناك سبيل يوصل إلى الله إلا سبيل محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال : – كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ، قيل ومن يأبى يا رسول الله ، قال : – من أطاعني ، ومن عصاني فقد أبى .
وقوله تعالى : – (إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا) يعني وقد أعذر من أنذر ، كما قال سبحانه ، (رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) وقوله : – عذاب قريب نوصفة بالقرب لأنه آت لا ريب فيه وكل ما هو آت قريب ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، أي : –يعرض عليه جميع عمله كما قال تعالى : – (يوم تجد كل نفس من خير محضر وما عملت من سـوء) وقـال سبحانه : – (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) (وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا) يعني : – حين يرى مصيره إلى النار ، ومصير البهائم إلى التراب يتمنى ألو كان من البهائم حتى يصير إلى ما صار إليه ، والعياذ بالله .

أما سورة النازعات

أما سورة النازعات ، فقد استفتحت : – كما ذكرت بالقسم المتكرر على إن يوم القيامة حق ، وأن البعث بعد الموت حـق ، وقـد اختلف العلماء في المقسم به في هذه الآيات (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) والمختار أن المقسم به في هذه الآيات الملائكة . (النَّازِعَاتِ) ملائكة الموت يترع روح الكافر الفاجر نزعاً شديداً ثم تغرقها في جهنم .
(وَالنَّاشِطَاتِ) ملائكة الموت تقبض روح المؤمن بيسر وسهوله فتخرج كأنما نشطت من عقال . (وَالسَّابِحَاتِ) ملائكة تسبح بـين السماء والأرض ، نزولا بما حملت من أمر الله وعروجاً إلى السماء مرة ثانية . (السَّابِقَاتِ) ملائكة تسبق إلى تنفيذ أمر الله عز وجل ، فهم عند ربهم صافون كما قالوا : – وإنا لنحن الصافون ، فإذا أمرهم الله تعالى بأمر تسابقوا إلى تنفيذ أمره . وقولـه تعـالى : – (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) الملائكة تدبر أمر الكائنات بإذن الله عز وجل لا من عند نفسها ابتداء ، فالملائكة لا تدبر أمر نفسها فضلا عـن أن تدبر أمر غيرها ، إنما الله سبحانه وتعالى هو الذي يدبر الأمر ، والملائكة هي التي تنفذ أمر الله عز وجل ، قال الله تعالى : – (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ) وقد وكل الله تبارك وتعالى بالمخلوقات ملائكة ، تنفذ فيها ما قدر الله سبحانه وتعالى ، وأراد ، فوكل الله تعالى بالوحي ملائكة ، ووكل بالموت ملائكة ، ووكل بالمطر ملائكة ، ووكل بالنفخ في الصور ملائكة ، ووكل بالأرحام ملائكة ، وقوله تعالى : – (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) كقوله تعالى في الذاريات : – (فالمقسمات أمر) والمراد : – الملائكة تقسم الأمور وتدبرها بإذن الله ، أما من غير إذنه فلا قال الله تعالى : – (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) .
ولن يصرح ربنا سبحانه وتعالى هنا ، بجواب القسم ، ولكنه اكتفى عن ذكره هنا بما صرح به في سورة المرسلات ، (إِنَّمَا تُوعَـدُونَ لَوَاقِعٌ) إنما توعدون من البعث والحساب والجزاء والجنة والنار ، إن ما توعدون لواقع .
ثم ذكر حال الناس يوم القيامة ، فقال : – (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) والراجفة : – النفخة الأولى في الصور ، نفخة الفناء ، والرادفة : – النفخة الثانية نفخة البعث ، والإحياء .

ثم ذكر الله تعالى حال الناس (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ) فقال عز وجل : – (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ) .

أي : – خائفة ، تظن أن يفعل بها فارقه ، ولذلك قال : – (أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) أي : – ذليلة منكسرة ، كما قال تعالى : – (خاشعة إبصارهم ترهقهم ذله) أولئك هم الكفرة الفجرة .

أما المؤمنون فوجوههم بيضاء مسفرة ، وهم آمنون مطمئنون كما قال تعالى : – (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) والسبب في كون الكفرة الفجرة ، يوم القيامة : – خائفون قلقون أذلة السبب أنهم كانوا في الدنيا لا يؤمنون بلقاء الله ، ولا يصدقون بيوم الدين ، وكانوا يقولون : – (أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ) أي : – راجعون إلى الحياة مرة ثانية بعد الموت ، فالعرب تقول : – رد فلان إلى الحافرة ، أي : – رجع إلى سيرته الأولى .

وقوله : – (أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً) استبعاد للبعث والرجوع إلى الحياة بعدما صاروا تراباً (أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ) أرادوا أنه لو كان ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم من البعث حقاً ، لكانوا هم الأخسرين في هذه الرجعة ، لأنهم لم يستعدوا لها ، ولم يحسبوا حسابها

قال تعالى : – (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ) كما قال سبحانه : – (إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) والمراد : – أن أمر الله تبارك وتعالى واحد لا يتكرر ، فإذا أمر اسرافيل بالنفخ في الصور النفخة الثانية ، استجاب وأجابه الناس إلى ما دعاهم إليهم من الخروج من الأجداث ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً .

وقوله سبحانه : – (فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ) أي : – إذا هم بعد النفخة فجأة بالأرض المبدلة ، أرض بيضاء نقية ، ووصفت ، والعرب تصف الأرض التي يترل بها الناس ، ولا ينامون ، بالساهرة

ولا شك أن تكذيب المكذبين بيوم الدين كان يحزن النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه : – تكذيب له فيما أخبرهم به ، من أنهم إلى الله راجعون ، فذكر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأخيه موسى عليه السلام ، لعله يصبر كما صبر ، فقال : – (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى) وهذا السؤال للتشويق والترغيب ، (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) والمقدس صفة للوادي ، وطوى اسم له وهو أسفل جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى وناداه ، (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى) أي : – تتطهر من دنس الكفر بالإيمان ، ومن دنس الشرك بالتوحيد ، ومن دنس المعصية بالطاعة ، (وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى) وهي العصا ألقاها فإذا هي ثعبان مبين ، (فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى) أي : – انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين ، فأما أخذه في الدنيا ، فكان كما قال تعالى : – (فأغرقناه ومن معه جميعا) وأما في الآخرة فإنه يقدم قومه يوم القيامة ، فأوردهم النار و بئس الورد المورود .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى) ، وإنما خص العبرة بأهل الخشية ، لأنهم الذين ينتفعون بآيات الله ، وينتفعون بالمواعظ والذكرى ، أما الجبابرة الطغاة الذي قست قلوبهم ، فقد قال تعالى عنهم : – (وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ) .

ثم لفت الله تبارك وتعالى أنظار المكذبين بيوم الدين ، إلى دلائل البعث التي تكررت في سورة المرسلات ، وسورة النبأ ، وهي خلق السماء والأرض ، والليل والنهار ، والجبال ، وإنزال الماء من السماء ، وإحياء الأرض بعد موتها ، كل هذه أدلة تدل على أن الله يحيي الموتى ، ويبعث من في القبور ، (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) .

ثم ذكر سبحانه وتعالى أيضا : – حال المكذبين بيوم الدين ، وحال المؤمنين ، إذا بعثوا يوم القيامة ، وأن المكذبين في الجحـــيم ، وأن المؤمنين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

ثم ختم الله تبارك وتعالى السورة : – ببيان أن علم الساعة لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى : – (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّـــانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا) إليه يرد علم الساعة إن الله عنده علم الساعة ، أما أنت يا محمد (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) ، ومن هنا قيل ، الدنيا ساعة فاجعلها طاعة .
رضينا بالله رب ، وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

تفسير الإجمالي

المحاضرة الثالثة عشرة

تفسير سور عبس والتكوير والإنفطار

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آلـه وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير ثلاث سور وهي : – عبس ، والتكوير ، والانفطار .

سورة عبس ، والتكوير ، الإنفطار .

أما سورة عبس

فهي سورة مكية ، تعالج في بداية حادث معيناً من حوادث السيرة ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، مشغولاً بأمر جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام ، إذ جاءه ابن أم مكتوم الرجل الأعمى الفقير ، وهو لا يعلم أنه مشغول بأمر القوم ، يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منه ، وعبس وجهه ، وأعرض عنه ، فترل قرآن بصدر هذه السورة بعاتب الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا التصرف ، ثم تعالج جحود الإنسان وكفره الفاحش لربه ، وهو يذكره بمصدر وجوده وأصل نشأته وتيسير حياته ، وتولي ربه له في موته ونشره ، ثم تقصيره بعد ذلك في أمره كذلك تعالج توجيه القلب البشري إلى أمس الأشياء به ، وهو طعامه وطعام حيوانه ، وما وراء ذلك الطعام من تدبير الله وتقديره له ، كتدبيره وتقديره في نشأته ، فأما في نهايتها فتتـولى عرض الصاخة ، يوم تجيء بهولها ، الذي يتجلى في لفظها كما تتجلى أثارها في القلب البشري ، الذي يذهل عما عاداها ، وهـو في الوجوه التي تتحدث عما دهاها .

يقول تعالى : – (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الأَعْمَى) .

قال العلماء : – في ذكر كلام بأسلوب الغيبة دون الخطاب ، ملاطفة من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ، إذ لو خاطبـه لكـان الخطاب شديداً على نفسه ، فعدل الله تعالى عن الخطاب إلى الغيب ، رفقاً بنبيه صلى الله عليه وسلم في العتاب ، وقوله تعـالى : – (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى) أي : – ما يدريك لعل هذا الأعمى الذي جاءك يسعى لعله يتزكى بما جاء يطلبه من علم الله الذي عندك ، أو ينتفع بما تذكره به من الهدى ودين الحق ، الذي أرسلك الله به ، ثم تشتد لهجة العتاب ، وينتقل إلى التعجيب من ذلك الفعل ، محل العتاب ، (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى) عن ربه بماله ، واستغنى عنك وما بعثك الله به من الهدى ودين الحق ، (فَأَنتَ لَـهُ تَصَدَّى) أي : – تتعرض له ، وتحرص على هدايته (وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى) أي : – ليس عليك من حسابه شيء ، إنه كذب وتـولى فلماذا هذا الحرص على هدايته وقد استغنى (وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى) يلتمس ما عندك من العلم وهو يخشى الله ويخافه ويحذر عقابه ، (فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى) بمن عندك من المشركين ، وتعرض عنه فلا تقبل عليه ، (كَلاَّ) هذا لا يجوز ولا ينبغي أن يكون (إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) فلا

تعد لمثلها أبد ولا تعرض عن من أقبل عليك ، ولا تتصدى لمن تولى عنك وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ولذلك قال : – (فَمَن شَاء ذَكَرَهُ) فمن شاء ذكر الله في جميع أموره ، أو ذكر هذا الوحي فاتبعه .

وقوله تعالى : – (فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ) يعني : – أن هذه التذكرة أو هذا التتريل محفوظ في صحف مكرمة أي : – معظمة موقره مرفوعة ، أي : – عالية القدر مطهرة من الدنس والزيادة والنقص ، بأيدي سفره يعني : – ملائكة الوحي الذين هم سفرة بين الله ورسله ، وأخصهم جبريل عليه السلام وكلهم كرام برره أي : – خلقهم كريم حسن شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة ، وهذه الآيات كقوله تعالى : – (فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لّا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

ثم يقول سبحانه : – (قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) المراد بالإنسان هنا : – الكافر . بدليل تعجب الله سبحانه من كفر هذا الإنسان بقوله : – (مَا أَكْفَرَهُ) أي : – ما أعظم كفره ، أو ما أكثر كفره ، في حين أن دلائل الإيمان نافذة أمام عينيه ، لا تخفى على من كان له أدنى نصيب من نور البصيرة ، (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) تنبيه للإنسان الكافر على أصل نشأته الذي هو دليل واحد على وجود خالقه ، واستحقاقه للعبادة ، (مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ) فكيف يعجز عن بعثه بعد الموت ، (قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) .

وقوله تعالى : – (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) اختلف العلماء في المراد بالسبيل هنا فقال بعضهم : – هو طريق خروجه من بطن أمه إلى هذه الدنيا .

وقال بعضهم : – المراد بالسبيل هنا طريق الخير وطريق الشر . كما قال تعالى : – (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) وقال : – (وهديناه النجدين) أي : – بينا له الطريقين ، طريق الخير وطريق الشر .

وقوله تعالى : – (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ) أي : – جعل له قبراً يدفن فيه ، وجعل دفنه بعد موته فرضاً على الأحياء ، ولم يشأ الله سبحانه أن يجعل الإنسان بعد موته كسائر الميتات تلقى على القمائم ونحوها فتأكلها السباع ، وهذا من إكرام الله تعالى للإنسان ، كما قال تعالى : – (ولقد كرمنا بني ادم) وقوله : – (ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ) أي : – بعثه بعد موته .

(كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) فيه للعلماء قولان : –

الأول : – أن الإنسان لم يقم بما أمره الله به حق القيام .

والثاني : – (كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) أي : – لم يتم بعد ما سبق به قضاء الله مما أمر أن يكون .

قال العلماء في هذه الآيات : – إشارة إلى الاستدلال بالنشأة الأولى ، على إمكان الثانية ، كما قال تعالى : – (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) وقول الله سبحانه : – (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) أي : – ليتأمل فيه كلما قدم له ، (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا) أي : – أنزلنا الماء من السماء فشق الماء الأرض فتخلل تربتها ، فنبت الحب المودع فيها ، وارتفع حتى شق الأرض وظهر عليها (فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا) والحب والعنب معروفان ، أما (القضب) فهو النبات الذي يأكل رطباً غضا ، ويقطع مرة بعد مرة ، (وَزَيْتُونًا وَنَخْلا) وهما معروفا أيضا (وَحَدَائِقَ غُلْبًا) أي : – كثيرة الأشجار ، فقد التف بعضها على بعض ، (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) والفاكهة معروفة ، وأما الأب : – فو ما يخص البهائم مما ينبت في الأرض .

ثم ختم الله تعالى السورة : – بذكر بعض أهوال يوم القيامة ، وأحوال الناس فيها ، فقال : – (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ) وهي صيحة يوم القيامة ، النفخة التي ينفخها اسرافيل عليه السلام ، سميت كذلك لأنها تصخ الآذان من شدتها ، وتحدث بسببها أهوال عظام ، تجعل

الإنسان ينشغل بنفسه عن أقر بالناس منه ، وأحبهم إليه (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) .

عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : – " يحشر الناس يوم القيامة ، حفاة ، عراة ، غرلا " ، قالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله : – النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ، فقال صلى الله عليه وسلم : – " يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض ، لكل امرؤ منهم يومئذ شأن يغنيه ".

وقوله تعالى : – (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) أي : – أن الناس في هذا الموقف يكونون قسمين ، وجوه مسفرة أي : – مستنيرة ضاحكة مستبشرة ، أى : – فرحة مسرورة ، ووجوه مسودة عليها غبره ترهقها قطرة ، كما قال تعالى : – (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) وقال سبحانه : – (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) .

نسأل الله تعالى أن يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ، ويجعلنا من ورثة جنة النعيم .

أما سورة التكوير والانفطار

فهما سورتان : – قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : – " من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي العين " ، فليقرأ : – (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) ، و (إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ) ، و (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ) .
فكل من السورتين تتحدث : – عن القيامة ، وأهوالها .

أما سورة التكوير

فقد استفتحتها : – الله تبارك وتعالى (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) والتكوير : – هو لف الشيء بعضه على بعض ، كتكوير العمامة ، ويوم القيامة ، تجمع الشمس والقمر ، ثم يكوران ويرمى بهما في البحار فإذا هي نار موقدة .
(وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ) أي : – سقطت من مواقعها ، (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) من أماكنها ، كما قال تعالى : – (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) وقال : – (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) وقال : – (وسيرت الجبال فكانت سرابا) ثم تذهب بالكلية فلا يبقى لها عين ولا أثر ، (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا) .
(وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ) المراد بالعشار : – الحوامل من الإبل ، عطلت أي : – أهملها أهلها وتركوها فلم يسألوا عنها ، وكانت أحب شيء إلى نفوسهم (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) أي : – جمعت وأحضرت ، كما قال تعالى : – (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) .
(وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) أي : – أوقدت ، فاشتعلت نار ، كما في الانفطار (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ) (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) كما قال تعالى : – (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) والمراد جمع كل نظير إلى نظيره : – جمع أصحاب العمل الواحد بعضهم مع بعض ،

فيكون الرجل الصالح مع الرجل الصالح ، والرجل السوء مع الرجل السوء ، وهكذا ، كما قال تعالى : – (وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) .

وقوله تعالى : – (وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ) كان العرب يكرهون البنات ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك .

وأخبر أن هذه الموءودة ستسأل يوم القيامة بأي ذنب قتلت ؟ ، وهذا تهديد شديد لقاتلها ، فإنه إذا سئل المظلوم فما بالك بالظالم ، وقوله تعالى : – (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) أي : – أعطي كل إنسان صحيفة عمله ، بيمينه أو بشماله ، فما منا إلا وله ملكان عن اليمين ، وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، فإذا مات العبد طويت صحيفته ، وجعلت معه في عنقه ، حتى إذا بعث نشرت له ، كما قال تعالى : – (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) .

(وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ) أي : – أزيلت ، (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ) أي : – أحميت ، (سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ) أي : – أدنيت من أهلها المتقين ، كما قال تعالى : – (وأزلفت الجنة للمتقين) وجواب الشرط المتكرر في هذه الآيات هو قوله تعالى : – (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ) أي : – إذا وقعت هذه الأمور كلها حينئذ ، تعلم كل نفس ما عملت من خير ، وما عملت من شر .

وقوله سبحانه : – (فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ) أي : – النجوم التي تخنس بالنهار أي تغيب وتختفي ، (الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) النجوم تجري في منازلها في الليل ثم تكنس أخره أي تختفي عن الأنظار عند مغيبها عند طلوع الفجر ، (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ) لفظ عسعس يصح استعماله في الإقبال والإدبار ، واستعماله في الإقبال هنا أرجح ليناسب ما بعده وهو : – (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) فيكون الرب سبحانه قد أقسم بإقبال الليل ، وإقبال النهار ، كما قال تعالى : – (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلي) وجواب القسم (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) يعني : – جبريل عليه السلام ، أي ملك شريف حسن الخلق ، بهي المنظر ، (ذِي قُوَّةٍ) كما قال تعالى : – (علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى) (عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ) يعني : – أن له مكانة خاصة عند الله تعالى ، ومنزلة عالية ، وهو عليه السلام لذلك ، (مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) أي : – مطاع هناك في الملأ الأعلى من الملائكة ، وهو عليه السلام أمين على ما حمل من الوحي ، وهذه تزكية من الله لرسوله الملكي أتبعها بتزكية رسوله البشري محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : – (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ) فهو صاحبكم ، وأنتم أعلم الناس به ، فقد نشأ بينكم ، وترى في أكنافكم ، وأنتم الذين لقبتموه بالصادق الأمين ، وأنتم الذين شهدتم برجحان عقله حين حكمتموه بينكم فيما كنتم تختلفون ، فكيف تجعلوه الآن مجنون ، فإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ، (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ) يعنى : – رأى محمد صلى الله عليه وسلم معلمه الأمين جبريل ن وهو بالأفق البين الواضح ، لا يحول بين رؤيته شيء ، رآه على صورته الملائكية ، له ستمائة جناح قد سد بها الأفق ، و ذلك بالمرة الأولى بأجياد في مكة عند البيت العتيق ، (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) وذلك ليلة المعراج ، (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ) قرأ لفظ : – (بضنين) بالضاد ، وقرأ بالظاء : – (بظنين)

فعلى القراءة الأولى : – يكون المعنى وما هو عن الغيب وهو الوحي الذي أوحاه الله إليه ببخيل بل هو يبذله لكل أحد ، ومن غير طلب ، فقد علمكم ما علمه الله وبلغكم ما أمراه الله أن يبلغه ولم يكتم شيئا ولا بخل بشيء .

وعلى قراءة الظاء : – (وما هو على الغيب بظنين) ، يكون المعنى وما هو بمتهم فيما بلغ فقد بلغه بأمانة من غير تبديل ولا تغير ، ولا زيادة ولا نقص .

(وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ) أي : – ليس القرآن من قول الشيطان ، ولا يقدر الشيطان عليه ، ولا يريده كما قال تعالى : – (وما تنزلت به الشياطين) وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ، (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) هذا كقولك للرجل يضل عن الطريق أين أنت ذاهب ليس هذا طريقك ، الطريق هو هذا ، فالله يقول :– للقوم الضالين ، فأين تذهبون في تكذبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه من عند الله حقاً ، وقوله تعالى : – (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) أي : – هذا القرآن ذكر لجميع الناس ، لمن شاء منكم أن يستقيم ، ومشيئة العبد مرتبطة بمشيئة الله وكل شيء يجري بتقدير الله تعالى ومشيئته ، ومشيئته تنفذ لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولذلك قال : – (وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) .

أما سورة الانفطار

فقد استفتحت : – بقول ربنا سبحانه : – (إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ) أي : – تصدعت ، وانشقت من هو ليوم القيامة ، كما قال تعالى : – (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا السماء منفطر) .
(وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ) أي : – تساقطت من منازلها ، (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ) فجر الله بعضها في بعض ، فاختلط عذبها بملحها ، أو حصل فيها انفجار ذري هائل ، (وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ) أي : – تحركت ، فألقت ما فيها ، كما قال تعالى : – (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور) أي : – أخرج من فيها من الأموات وكما قال تعالى : – (وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت و أذنت لربها وحقت) .
وقوله تعالى : – (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) هو جواب الشرط لما سبق ، وتقدير الكلام ، إذا حصل هذا كله ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ، كما قال الله تعالى : – (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ كَلاَّ لا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذ الْمُسْتَقَرُّ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) .
وقوله تعالى : – (يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) أي : – ما غرك أيها الإنسان بربك الذي تكرم عليك ، ما غرك بربك راعيك ومربيك ، بإنسانيتك الكريمة الواعية الرفيعة .

يا أيها الإنسان ما الذي غرك بربك ؟
فجعلك تقصر في حقه وتتهاون في أمره ، ويسوء أدبك في جانبه ، وهو ربك الكريم الذي أغدق عليك من كرمه وفضلة ، ثم يفصل شيئاً من هذا الكرم الإلهي الذي أجمله في هذا النداء .
فيقول سبحانه : – (مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ) فأخرجك من العدم إلى الوجود ، ووهبك نعمة الوجود ، ومعنى قوله : – (فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ) أي : – سوى خلقك ، فما جعل أطول من يد ولا قدم ولا قدم أقصر من قدم وما جعل عين أوسع من عين ، ولا أذن أطول من أذن ، وإنما خلقك فسواك فعدلك أي جعلك سويا مستقيما معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال ، كما قال تعالى : – (ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) وقوله سبحانه : – (فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ) أي : – في صورة أبائك أو في صورة أعمامك أو في أي صورة شاء ، كما قال : – (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) كيف يشاء هو ، لا كيف ما تشاءون أنتم

، فما غرك بربك أيها الإنسان وهذه أفضاله ، ما غرك بربك وهذه نعمة ، ما غرك بربك وهذا هو إحسانه ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، قال ابن عمرو رضي الله عنهما غره والله جهله ، وقال الله تعالى حكاية عن أهل الإيمان أنهم يقولون للمنافقين يوم ينادونهم انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا ورائكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة ، وظاهرة من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا : – بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم ، وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني ، حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور .

وقوله تعالى : – (كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) أي : – إن الذي حملكم على التجرؤ على اله وإنكار نعمه ، وجحود فضلة ، هو أنكم تكذبون بالدين ، وهو جزاء الأعمال ، وتظنون أنكم غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم ، وإذا قيل وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين .

وقوله تعالى : – (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) يعني : – يحفظون أعمالكم كلها ، دقها وجلها ، (كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) لا غيب عنهم من أعمالكم شيء كما قال تعالى : – (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) وقال تعالى : – (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ) ومن علم الحفظة ، علمهم بإرادة العبد وما يهم به وإن لم يعمله ، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله عز وجل : – " إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عمله فاكتبوها سيئة ، وإذا هم عبدي بحسنه فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشر " .

ثم بين سبحانه وتعالى مآل الفجر ومآل الأبرار فقال سبحانه : – (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) الأبرار : – جمع بار ، وهو كل من جمع بين العقيدة الصحيحة والعمل الصالح ، كما قال تعالى : – (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) هؤلاء الأبرار في نعيم في الدنيا قبل نعيم الآخرة كما قال تعالى : – (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) فطيب الحياة : – هو نعيم الدنيا ، وهو شيء لا يعرف إلا بالمذاق ، ولقد بلغ الحال ببعض الصالحين أنه كان يقول : – إنه لتمر بالقلب أحوال .

أقول : – إن كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه إنهم لفي نعيم ، فهذا هو نعيم الدنيا ، وهذه هي الحياة الطيبة ، أمن ورخاء ، سعادة واستقرار أمان وطمأنينة ، يجدها الأبرار وإن ربطوا على بطونهم من الجوع الأحجار .

أما الفجار ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول : – (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) في جحيم في الدنيا قبل جحيم الآخرة ، كما قال تعالى : – (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) فهم في جحيم وفي ضنك وفي هم وفي غم ، وأن لبثوا أحسن الثياب وركبوا أحسن المراكب ، وإن سكنوا القصور، وتزوجوا أجمل النساء ، لأن أفئدتهم هواء وأرواحهم خواء ، وشهوات الدنيا كلها لا توفر للروح الطمأنينة ولا توفر للقلب الراحة ، ما لم يكن عامر بذكر الله القائل : – (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فالبؤس والشقاء ، واليأس والتعاسة ، والقلق والاضطراب ، ها كله من جحيم الدنيا ، وأما جحيم الآخرة ، فإن الفجار يصلونها يوم الدين ، أي : – يصلون إليها فتغمرهم يوم الحساب والجزاء وما هم عنها بغائبين ، أي : – لا يغيبون عن هذا العذاب ساعة واحدة ، ولا يخفف عنهم العذاب ساعة واحدة .

ثم عظم الله سبحانه وتعالى أمر يوم الدين فقال : – (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) وهو سؤال لتعظيم شـــأن ذلك اليوم ، وإنما كرر تأكيداً لعظيم شأنه ، ثم فسره بقوله : – (يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا) ولو كانت ذا قربي كما قال تعالى : – (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا) وقال سبحانه : – (وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) ، (يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) ، كقوله تعالى : – (الملك يومئذ الحق للرحمن) وقوله تعالى وقوله الحق (وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) ولله الأمر اليـــوم ، ويوم الدين ، ولكنه يومئذ لا ينازعه في أحد .

ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : – يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : – أنا الملك ، أين الجبارون ؟ ، أين المتكبرون ؟ ، ثم يطوي الأراضين بشماله ، ثم يقول : – أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الإجمالي

المحاضرة الرابعة عشرة

تفسير سور المطففين والإنشقاق والبروج والطارق

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آلــه وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير هذه السور : – المطففين ، والانشقاق ، والبروج ، والطارق .

تفسير سورة المطففين ، والإنشقاق ، والبروج ، والطارق .

أما سورة المطففين

فهي سورة مكية

تتألف من أربعة أقسام : –

١) يبدأ الأول بإعلان الحرب على المطففين .

٢) ثم يتلوه الثاني ، فيذكر مآل الفجار .

٣) ويله الثالث يتحدث عن مآل الأبرار .

٤) وأما القسم الرابع والأخير فإنه يذكر ما كان عليه الفجار من استهزاء بالأبرار .

وكيف أن الأبرار في الآخرة يسخرون من الفجار كما كانوا منهم يسخرون ، هل ثوب الفجار ما كانوا يفعلون .

قوله تعالى : – (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) هذا تبدأ السورة بإعلان الحرب من الله العزيز القهار على المطففين ، (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) أي : – ويل لهم من عذاب الله غد ، يوم هم على النار يفتنون .

ثم بين سبحانه وتعالى ، ما المراد بالمطففين فقال : – (الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) والمعنى : – أن المطففين إذا أخذوا استوفوا الكيل والميزان ، وإذا أعطوا بخسوا الناس حقهم في الكيل والميزان ، وربما كان عندهم كيلان وميزانان يأخذون بواحد ويعطون بالآخر ، وهذه جريمة أهلك الله بها أمة شعيب ، (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) إنه كان عذاب يوم عظيم ، ولقد كثر في القرآن الكريم الأمر بالوفاء ، والنهي عن التطفيف .

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : - " يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بـــالله أن تـــدركوهن ، وذكر من هذه الخمس قوله : - ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين ، وشدة المئونة وجور السلطان ، ثم قال سبحانه وتعالى : - منكراً عليهم هذه الجريمة ، وهي بخس الناس أشيائهم ، بطفيف الكيل والميزان " .

(أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ) ألا يظن أولئك المطففون أنهم مبعوثون ليوم عظيم مقداره خمسون ألف سنة ، ألا يتقون هذا اليوم ، ألا يتقون من القيام بين يدي رب العالمين سبحانه ، الذي يعلم سرهم ونجواهم .

وقوله تعالى : - (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) أي : - حفاة عراة غرلا في موقف ضيق حرج ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : - " يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب في رشحه " ، أي : - عرقه إلى أنصاف أذنيه ، فهلا اتقى المطففون هذا اليـــوم بتـــرك التطفيف .

ثم قال تعالى : - (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ) وهم المتجاوز للحد في المعصية والإثم ، ومنهم المطففون ، (إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّـــارِ لَفِي سِجِّينٍ) وهو المكان الضيق جدا .

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ) سؤال لتفخيم الشأن ، أي : - أنه أمر عظيم ، سجين : - مقيم وعذاب أليم.

وقوله تعالى : - (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ) متعلق بما قبل السؤال ، متعلق بقوله تعالى : - (إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ) وليس جواباً للسؤال ، والمعنى إن كتاب الفجار : - (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ) أي : - مكتوب مقروء منه ، لا يزاد فيه ولا ينقص منه ، وهذا الكتاب في ســـجين

وقوله تعالى : - (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) أي : - ويل لهم إذا صاروا إلى ما أوعدهم الله به من الســـجن ، ويل لهم حين يقال لهم انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب .

وقوله تعالى : - (وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) يعني : - أنه لا يكذب بيوم الدين ، إلا كل معتد في أفعاله ، أثيم في أقواله فهذا الذي يكذب بيوم الدين ، لأنه : - يعلم ماله يوم الدين من العذاب الأليم ، فلذلك هو يكذب به ، ليبعد عنه شبح هذا العذاب الذي ينتظره ، ليظل متمادياً في عدوانه وطغيانه ، كما قال تعالى : - (بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) .

وقوله تعالى : - (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) يعني : - إن هذا المعتدي الأثيم إذا سمع آيات الله تتلى عليه ، اتخذها هزوا ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها في تملى عليه بكرة ، وأصيلا ، ولم يكتفوا بهذا بل تجرئوا فقال : - (قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) قال تعالى : - (كَلاَّ) ليس الأمر كما يقولون بل القرآن تنزيل من الرحمن الرحيم ، لئن اجتمعـــت الإنس والجن لأن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ثم يكشف ربنا سبحانه عن العلة الحقيقيـــة التي جعلتهم يكذبون بيوم الدين ، ويكذبون بكلام رب العالمين فيقول سبحانه : - (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْســـبُونَ) يعني : - أنهم أسرفوا على أنفسهم حتى أحاطت بهم خطيئتهم وغطت قلوبهم ، فأصبحوا لا يفقهون حديثا ، ولا ينكرون منكرا ، ولا يعرفون معروفا وهذا هي النتيجة الحتمية للذنوب إذا لم يقلع الإنسان عنها .

وقوله تعالى : - (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) يعني : - أنهـــم لمـــا حجبـــت المعاصي قلوبهم عن رؤية الله في الدنيا ، عوقبوا فحجبوا عن رؤيته سبحانه في الآخرة ، جزاءا وفقا وما ربك بظلام للعبيد .

وقد استدل الإمامان مالك والشافعي رحمهما الله : - على رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة بحجب الكافرين عن رؤيته ، فقـــالا : - لمـــا حجب عن رؤيته أعدائه ، كان لابد أن يكرم برؤيته أولياءه ، حتى قال الإمام الشافعي ، لو لم يعتقد محمد ابن إدريس أنه يرى ربه في الآخرة ما عبده ، والإيمان بالرؤية من عقيدة أهل السنة .

ولذا قال الإمام الطحاوي رحمه الله : – والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ، ولا كيفية ، كما نطق به كتاب ربنا (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) .

وقوله تعالى : – (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) يعني : – ثم هم مع الحرمان من رؤية الرحمن ، من أهل النار ، (ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) ، كما قال تعالى : – (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) .

وقوله تعالى : – (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ) يعني حقاً إن كتاب الأبرار ، وهم الذين جمعوا بين العقيدة الصحيحة والعمل الصالح ، كما سبق بيانه لفي عليين ، أي: – مصيرهم إلى عليين ، بخلاف الفجار فمصيرهم إلى سجين ، وقوله تعالى : – (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ) .

سؤال لتفخيم شأنه وتعظيم أمره ، (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ) وقد تبين معناه فيما سبق .

(يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) يعني : – يشهده المقربون من الملائكة التي في السماء ، وذلك من باب إظهار الشرف والفضيلة والكرامة ، كما أنهم لو أخذ أحدهم كتابه بيمينه قال : – (هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) لنفس الغرض .

وقوله تعالى : – (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ) سبق المراد بهذا النعيم في تفسير سورة الانفطار ، (عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ) ينظرون إلى سعة ما هم فيه ، وينظرون إلى الرب عز وجل ، (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) أي : – إذا نظرت في وجوههم عرفت من جمالها وبهائها ما هم فيه من النعيم العظيم ، من الطرف والسرور والرياسة .

(يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ) الرحيق : – من أسماء خمر الجنة ، وهو مختوم بالمسك

قال العلماء : – إما أن يكون المراد بقوله ختامه مسك يعني : – أن القارورة قد ختمت في أعلاها بخاتم المسك دليلاً على أنها لم تفتح من قبل ، ولم تمسها أيد ، فإذا كان هذا الختام مسكاً ، فكيف بالمشروب ، الداخلي ، وإما أن يراد بقوله : – ختامه مسك ختام الشراب ، وهو الفضلة التي يتركها الشارب في قعر الكأس فإذا كانت هذه الفضلة مسكاً فكيف بأعلاها ، (وَفِي ذَلِكَ) النعيم المذكور (فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) فهذا الذي ينبغي أن يتنافس فيه الناس لا حطام الدنيا الزائل كما يفعل جهال الناس ، وهذه الآية كقوله تعالى ، بعد ما ذكر نعيم أهل الجنة : – (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) .

(وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ) يعني : – أن الرحيق الموصوف ممزوج من شراب يقال له تسنيم ، وهو أشرف شراب أهل الجنة ، وقوله تعالى : – (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) يعني : – أن الأبرار يمزج لهم الرحيق بالتسنيم ، أما لمقربون فيشربون التسنيم وحده غير ممزوج ولا مخلوط .

وقوله تعالى : – (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ) أي : – إذا مر أحد المؤمنين بالمجرمين غمزه بعضهم بعضا استهزاء وسخرية ، ثم لا يجدون في صدورهم حرجاً مما يعملون .

(وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ) ، مسرورين بما فعلوا من السخرية والاستهزاء بالمؤمنين ، (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ) وذلك أثر من أثار الران الذي غطى قلوبهم ، كما قال تعالى : – (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ) .

قال تعالى : – (وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ) يعني : – ما كلفناهم بمراقبتهم ، وحفظ أعمالهم فلما شغلوا أنفسهم بهم ، ثم قال تعالى : – (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ) .

قال العلماء : – بين أهل الجنة ، وأهل النار طاقات ، متى شاءوا أن يفتحوها فتحوها فيسخرون منهم كما كانوا منهم يسخرون .
وقوله تعالى : – (عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ) قد سبق بيانه .

ثم ختم الله تعالى السورة بقوله : – (هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) يعني : –
هل جزي الكفار على ما كانوا به يستهزؤون ؟
نعم قد جوزوا أوفر الجزاء ، وأتمه .
وهذه الآيات كقوله تعالى حكاية عن أهل النار : – (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ) .

أما سورة الانشقاق

فهي السورة الثالثة بعد التكوير والانفطار ، اللاتي قال فيهن النبي صلى الله عليه وسلم ، من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ : – (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) ، (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) ، (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ) .
قوله تعالى : – (إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ) يعني : – يوم القيامة كما قال تعالى : – (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ) ، وقوله تعالى : – (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا) أي : – سمعت وأطاعت (وَحُقَّتْ) وحق لها أن تسمع وتطيع ، لأنها من خلق الله ، ولا يحق لمخلوق أن يعصي خالقه ، (وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ) أي : – سويت فلم يبقى فيها عوجا ولا أمت ، كما قال تعالى : – (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا) .
وقوله تعالى : – (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) أي : – ألقت ما في بطنها من الأموات ، وتخلت عنهم ، كما قال تعالى : – (إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا) .
(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) أي : – سمعت وأطاعت ، لأمر ربها ، وحق لها أن تسمع وتطيع ، وجواب الشرط في هذه الآيات محذوف ، استغناء عنه بما ذكر في سورة الانفطار ، والتكوير (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) .
وقوله تعالى : – (يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ) الإنسان هنا : – هو عموم الإنسان المؤمن والكافر ، فالمؤمن يكدح والكافر يكدح ، والكدح : – هو الجهد والمشقة في العمل ، وكل إنسان كادح كما قال تعالى : – (لقد خلقنا الإنسان في كبد) أي : – في تعب ومشقة ، والعاقل من جعل تعبه وكدحه في سبيل الله ، حتى إذا مات استراح ، واليائس البائس من كان تعبه لغير الله ، فإذا مات شقي في العذاب شقاءً أشق من شقاء الدنيا .
في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : – " أنه مر عليه بجنازة ، فقال : – مستريح أو مستراح منه ، فقالوا : – يا رسول الله ما المستريح ؟ والمستراح منه ؟ قال : – العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله ، والعبد الفاجر ، يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب " . ولذا قال تعالى حكاية عن أهل الجنة : – (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) .

وقوله تعالى : – (فَمُلاقِيه) . قال العلماء : – الضمير صالح للعود على الكدح فيكون المعنى أن كل إنسان سيلاقي عمله . كما قال تعالى : – (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ) . كما أن الضمير صالح للعود على الرب عز وجل والمعنى : – أن الإنسان سيلاقي ربه ، وسيجزيه بعمله ، وعلى كل حال فإن لقاء العمل ، لا يكون إلا بعد لقاء الله (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) ويومئذ إذا تتطاير صحف الأعمال ، (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) ، يعني : – يعرض على الله فيعفوا عنه ، ولا يدقق عليه في الحساب .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : – " من نوقش الحساب عذب ، فقلت : – أفليس قال تعالى : – (فسوف يحاسب حساباً يسير) ، فقال : – ليس ذلك بالحساب ، وإنما ذلك العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب " .

وقوله تعالى : – (وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا) أي : – يرجع إلى أهله في الجنة فرحاً مغتبطاً بما آتاه الله .

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا) أي : – خساراً وهلاك ، كما قال تعالى : –(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) .

(وَيَصْلَى سَعِيرًا) فصله في موضع أخر فقال : – (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ) وذكر هنا سبب هلاكه فقال : – (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا) لا يفكر في العواقب ، ولا يخاف مما أمامه على خلاف المؤمنين الذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون .

(إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ) أي : – كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ، وأن الله لا يعيده ، كما كان ، وأن الله لن يعيده كما كان (بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا) بلى سيعيده الله كما كان ، وسيجزيه بعمله ، فإنه كان به بصيراً عليماً خبير .

وقوله تعالى : – (فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) وهو هذه الحمرة التي تكون بعد الغروب ، (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ) أي : – وما جمع وضم تحت ظلمته (وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ) أي : – تم وصار بدراً ، (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ) هذا هو جواب القسم .

وللعلماء فيه أقوال كثيرة ، بلغت سبعة وعشرين قولاً ، ولعل أرجحها لتنتقلن أيها الناس يوم القيامة من مشهد إلى مشهد ومن موقف إلى موقف ، ومن حال إلى حال .

وقوله تعالى : – (فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ) هذا تعجب من كفر الكافرين الذين يكذبون بيوم الدين ، والقرآن يتلى عليهم بأي حديث بعده يؤمنون .

وقوله تعالى : – (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ) أي : – من طبعهم التكذيب والعناد والمخالفة ، ولو أرادوا الإيمان لآمنوا بهذا القرآن ولكن هذا دأبهم ، وتلك سجيتهم ، (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) أي : – بما يكتمون في صدورهم ، (فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) وليست هذه بشارة ، وإنا هو تهكم وسخرية ، فإن البشارة تطلق على ما يفرح ويسر حتى يظهر السرور على البشرة ، والمعنى فأخبرهم بأن الله قد أعد لهم عذاب أليما .

(إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) يعني : – لكن الذين آمنوا بقلوبهم ، وعلموا الصالحات بجوارحهم فلهم في الآخرة أجر دائم لا ينقطع كما قال تعالى : – (عطاء غير مجذوذ) .

أما سورة البروج

فهي سورة مكية ، أفردت للحديث عن تضحية المؤمنين ، في كل زمان من أجل الدين ، تشجيعاً للنبي صـــلى الله عليـــه وســـلم ، وللمؤمنين على التضحية ، وحثاً لهم على الصبر على الأذى فإن الله جاعل العاقبة لهم كما جعلها لإخوانهم من قبلهم .

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ) الواو : – للقسم ، والمعنى : – أقسم بالسماء ذات البروج ، وهي منازل الكواكب والنجوم ، وهي بمترلة القصور المشيدة ، وقوله تعالى : – (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) فسرها النبي صلى الله عليه وسلم فقال : – " اليوم الموعود : – يوم القيامة ، والشاهد : – يوم الجمعة ، والمشهود : – يوم عرفة " ، وجواب القسم محذوف تقديره : – (إن ما جـــاء في هـــذه السورة لحق ، أو إن انتقام الله ممن عذب أولياؤه لواقع) ولــ هكذا قال بعد هذا القسم (قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ) أي : – لعنـــوا ، والأخدود والخندق الذي يحفر بالأرض ، وأصحاب الأخدود :– جنود لملك ظالم كان الناس يعبدونهم من دون الله ثم هداهم الله فآمنوا بالله وكفروا بالملك ، فأمر أصحابه فخدوا الأخاديد ، وأضرموا النيران ، وقال لهم : – من رجع عن دينه فاتركوه ومن أبى فأقحموه فيها ، ثم جلس ينظر إلى المؤمنين وهم يلقون في النار ، فجمعوا بذلك بين الظلم وقسوة القلب ، قال تعـــالى : – (قُتِـــلَ أَصْــحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ) أي : – ما عابوا عليهم ، (إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) فهو رب كل شيء ومليكه ، وهو المستحق للعبادة دون ســـواه ، فكما أنه لا رب غيره ، فكذلك لا معبود سواه ، (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) ، يعني : – أنه لم يخفى عليه سبحانه ما فعله هـــؤلاء الطغاة بأوليائه المؤمنين ، فلقد رآهم ، وشهد ما فعلوه بهم من التعذيب والتحريق ، وسيجزيهم بمثل ما فعلوه بأوليائه ، ولذا قال تعالى : – (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) ولكن انظروا إلى لطف اللطيـــف ، وكرم الكريم سبحانه ، إنه حين يتوعدهم يعلق وعيده بعدم توبتهم فيقول : – (وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا) ومعناه : – أنهم إن تـــابوا بعد هذه الجريمة العظيمة تاب عليهم ، وفي هذا إرشاد لجميع العصاة والمذنبين ، إلى أنه لا يجوز القنوط من رحمة الله أبداً إن الله يغفـــر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم .

وقوله سبحانه : – (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) بيان لمـــا أعـــد الله لأوليائه بعد بيان ما أعده لأعدائه قتلة أوليائه .

ثم يقول تعالى مطمئنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ومتوعداً من كذبه : – (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) يعني : – إن بطش ربك يا نبينا ، وانتقامه من أعدائه الذين أذوك وكذبوك لعظيم قوي شديد ، فاصبر كما صبر ألوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم إنما نعد لهم عد .

وقوله تعالى : – (إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ) يعني : – إنه سبحانه يبدأ الخلق ويعيدهم كما خلقهم ، وهذا من تمام قدرته ، وهو أخـــذهم وتعذيبهم إذا يشاء قدير ، (وَهُوَ) مع هذه القدرة (الْغَفُورُ) لمن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى ، (الْوَدُودُ) الذي يتحبب إلى أوليائه فيحبهم ويحبونه ، وهو سبحانه : – (ذُو الْعَرْشِ) أي : – صاحب العرش العظيم ، الذي من عظمته أن الكرسي الذي هو بين يديه كالمرقاة إليه وسع السماوات والأرض فكيف بالعرش نفسه ، (الْمَجِيدُ) الذي هو أهل الثناء ، كما مجد نفسه ، وهو الممجد علـــى اختلاف الألسن وتباين اللغات بأنواع التمجيد ، وهو سبحانه (فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) فما شاء كان ، وإن لم يشأ العباد ، وقوله تعالى : – (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ) أي : – هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس وما أذاقهم من العذاب لما كذبوا رســـلهم ، فاصبر على أذى قومك فإنهم إن لم يؤمنوا حاق بهم من العذاب مثل ما حاق بفرعون وثمود أو أشد ، وقوله تعالى : – (بَـــلِ الَّـــذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ) أي : – هم في شك وريب ، وكفر وعناد ، (وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ) قد أحاط بهم علماً وأحاط بهم قدرة ، وهم في قبضته سبحانه لا يعجزونه ، (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) من الزيادة والنقصان ، والتحريف والتبديل ، وعد الله لا يخلف الله وعده كما قال : – (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

أما سورة الطارق

فهي سورة مكية ، وهي قسمان : –
الأول : – يتحدث عن البعث وأدلته
والثاني : – يتحدث عن القرآن وصدق النبي عليه السلام .

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) هكذا استفتحت السورة : – بالقسم من الله عز وجل بالسماء ، وهي مشاهدة معروفة ، والطارق : – مأخوذ من الطرق ، وأصله الضرب ، ومنه سميت مطرقة الصائغ أي : – الحداد لأنه يطرق بها أي : – يضرب بها ، وقد فسر الله تعالى الطارق الذي أقسم به بقوله : – (النَّجْمُ الثَّاقِبُ) أي : – الذي يثقب الظلام بضوئه وقيل ، كل نجم طارق لأن طلوعه بالليل وكل ما أتى بالليل فهو طارق ، (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ) سؤال لتفخيم أمره ، وتعظيم شأنه ، وجواب القسم (إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) .

والحفظة نوعان : –
١) حفظة الأعمال .
٢) وحفظة الأبدان .
أما حفظة الأعمال : – فهم الذين سبق ذكرهم في سورة الانفطار ، (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون) .
وأما حفظة الأبدان : – فهم الذين قال الله فيهم (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) وهذا من لطف الله بعباده ، وكل بهم حفظة يحفظونهم من المصائب والآفاك ، فإذا جاء القدر تخلوا عنهم ليصيبهم ما كتب لهم .
وقوله تعالى : – (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ) تنبيه للإنسان على ضعف أصله ، الذي خلق منه ، وإرشاد له بالاعتراف بالميعاد لأن : – من قدر على البدأة فهو قادر على الإعادة بطريق أولى ، كما قال سبحانه : – (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) .
وقوله تعالى : – (خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) يعني صلب الرجل ، وترائب المرأة كما قال : – (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) أي : – مختلطة من ماء الرجل ، وماء المرأة .
وقوله تعالى : – (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) يعني : – إن الله تعالى قادر على إعادة هذا الإنسان بعد موته كما ابتدأ خلقه ، ولذلك قال : – (أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) ومتى تكون الإعادة والرجعة قال : – (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) وينكشف المكنون ويحصل ما في الصدور . نسأل الله تعالى أن يسترنا بستره .
وقوله تعالى : – (فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ) أي : – فما للإنسان من قوة من نفسه ، تدفع عنه عذاب الله ، وما له من ناصر من أصدقائه وخلانه ، وأهله وجيرانه .
وقوله سبحانه : – (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ) أي : – ذات المطر الذي يرجع كل عام ، (وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) أي : – يصدعها النبات ، أي : – يشقها .

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) يعني : – إن القرآن هو القول الفصل الذي يفصل في كل قضية ويتكلم في كل خلاف ، وهـــو لا يلتبس بالهزل أبدا .

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا) . كما قال تعالى : – (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) إنهم يكيدون كيدا (وَأَكِيـــدُ كَيْـــدًا فَمَهِّـــلِ الْكَافِرِينَ) أي : – أنظرهم ولا تستعجل لهم (أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) أي : – قليلاً ، وسترى ما يحل بهم من العذاب ، ولو أمهلهم الـــدنيا كلها لكانت قليلاً .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الإجمالي

المحاضرة الخامسة عشرة

تفسير السور الأعلى والغاشية والفجر والبلد

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آلـه وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير هذه السور : – الأعلى ، والغاشية ، والفجر ، والبلد . فنقول وبالله تعالى التوفيق : –

سورة الأعلى ، والغاشية ، والفجر ، والبلد .

سورة الأعلى

سورة مكية ، كان الرسول صلى الله عليه يقرأ بها في إحدى ركعتي العيد ، والجمعة ، وإذا اجتمع في يوم واحد قرأ بها أيضا في إحدى الركعتين .

استفتحت : – بالأمر بتسبيح الله العلي الأعلى ، ثم ذكرت بعض مظاهر قدرة الدالة ، على استحقاقه للتسبيح بحمده . ثم ذكـرت الوحي ، وصفة تلقى النبي صلى الله عليه وسلم له ، وكيف كان يتعجل بالقراءة فنهاه الله عن ذلك ، فقال : – (سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى) وأمره أن يذكر بالقرآن متى أراد أن تنفع الذكرى ، وبين سبحانه من ينتفع ومن لا ينتفع من الحق .

ثم ختمت السورة : – بالإشارة إلى أن الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة سببه تزكيه النفس والمحافظة على الصلاة التي هي عمـود الدين ، ولكن أكثر الناس عن هذا غافلون لأنهم يؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير لهم لو كانوا يعلمون ، وهذه الحقائق التي تضمنتها السورة الكريمة ، قد تضمنتها من قبل صحف إبراهيم وموسى .

قوله تعالى : – (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى) التسبيح معناه : – التتريه عن المناقص ، والمعايب ، وقد اختلف العلماء هل المراد تسـبيح الاسم ، أم تسبيح الرب ؟ وأصح الأقوال أن الله تعالى أمر هنا بتسبيح اسمه الأعلى ، وأمر في مواضع أخرى بتسبيح ذاته سـبحانه ، فقال : – (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) وتسبيحه تعالى معناه : – تتريهه عن كل ما لا يليق بجلاله ، لأن له سبحانه الكمـال المطلق ، وأما تسبيحه اسمه تعالى ، فيكون : – بتتريه أسمائه تعالى عن تسميه غيره ، وتتريه أسمائه تعالى عن النطق بها في حـال اللـهو والعبث ، وتتريه أسمائه سبحانه عن الأماكن الخبيثة ، وقوله سبحانه : – (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى) في هذا الاسم إشـارة إلى علـوه سبحانه وتعالى فوق خلقه ، كما أن من أسماءه تعالى العلي ، قال تعالى : – (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) فالعلي والأعلى يدلان على علـوه سبحانه وتعالى فوق خلقه ، وقد صرح بذلك في مواضع كثيرة من كتابه وقوله سبحانه : – (الَّذي خَلَقَ فَسَوَّى) أي : – خلق كل شيء فسواه وحسنه وجمله .

(وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) أي : – قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدر له ، كما قال موسى عليه السلام ، وقد سأله فرعون فمن ربكما يا موسى ، فكان مما قاله موسى عليه السلام ، ربنا الذي أعطي كل شيء خلقه ثم هدى ، أي : – قدر مقادير الخلائق وهداهم إلى ما قدر لهم .

وقوله تعالى : – (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) المرعي معروف : – وهو ما ترعاه النعم ، وغيرها من الدواب ، وهو يكون أخضر يانعاً ثم يجعله الله غثاء أحوى أي يابساً أسود هشيماً متغير ، وفي هذا إشارة إلى أن كل نبات إلى حصاد وكل حي إلى موت ، وهي إشارة ضمنية قد جعلها الله تعالى مثلاً للدنيا حتى لا يغتر بها الناس كما قال سبحانه : – (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقوله تعالى : – (سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ) إخبار من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ووعد منه له ، بأنه سيقرئه قراءة لا ينسى منها إلا ما شاء الله ، وكان عليه الصلاة والسلام ، إذا جاءه جبريل يقرأ عليه القرآن ، يتعجل بالقراءة معه حتى لا ينسى فنهاه الله عن ذلك فقال : – (وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) .

وقوله سبحانه : – (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى) يعني : – إنه سبحانه يعلم ما يكون من عبادة كل حال ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى) وعد من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن ييسره لليسرى في أموره كلها ، في دينه ودنياه ، وقد صدق الله وعده ، ويسر نبيه لليسرى وله الحمد والمنة .

وقوله تعالى : – (فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى) .

قال العلماء : – إن شرطية ، إن نفعت الذكرى فذكر .

وقسموا المدعوين إلى ثلاثة أقسام : –

١) قسم مقطوع بانتفاعه .

٢) وقسم مقطوع بعدم انتفاعه .

٣) وقسم يرجى انتفاعه .

فالأول : – هم المؤمنون الذين قال الله فيهم : – (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) وهؤلاء يجب تذكيرهم .

والقسم الثالث : – يذكر لعله ينتفع فمن ترجو أن ينتفع فذكره .

وأما القسم الثاني : – فهذا قد أمر الله نبيه بالإعراض عنه ، فقال : – (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى .

وقوله تعالى : – (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى) كقوله : – (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ) فأهل الخشية هم أهل الانتفاع بالذكر ، وقوله تعالى : – (وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى) يعني : – الكافر ، فإن الكافرين قال فيهم رب العالمين : – (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) ، وقال : – (وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ) وقال : – (وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ) وقوله

تعالى : – (الَّذي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى) . أي : – يدخلها فتغمره من جميع الجهات ، ويأته الموت من كل مكان ، (ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا) فيستريح ، (وَلا يَحْيَى) فيها حياة طيبة .
وقوله تعالى : – (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى) أي : – من طهر نفسه من دنس الكفر والشرك ، وسائر المعاصي والأخلاق الرذيلة ، وذكر اسم ربه فصلى أي : – أقام الصلاة في أوقاتها طاعة لله تعالى وامتثال لأمره ورغبة في ثوابه ، وقيل إن المراد بقوله تعالى : – (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) زكاة الفطر وصلاة العيد .
وقوله تعالى : – (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أي : – تقدموها على الآخرة ، (وَالآخِرَةُ خَيْرٌ) من الحياة الدنيا كلها ، (وَأَبْقَى) والحياة الدنيا فانية .

قال بعض السلف : – لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى ، لآثرت العقول السلمية الآخرة على الدنيا ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من حذف يفنى .
وقوله تعالى : – (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) يعني : – إن هذا المذكور في السورة أو في هذه الجملة الأخيرة قد كان من قبل في صحف إبراهيم وموسى .

أما سورة الغاشية

فهي سورة مكية .
تناولت موضوعين أساسيين : –
الأول : – القيامة وأهوالها ، وانقسام الناس يومها قسمين : –
١) فريق في الجنة .
٢) وفريق في السعير .
والثاني : – مظاهر قدرة الله تعالى ووحدانيته .

قوله تعالى : – (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) وهي الداهية العظيمة ، التي تغشى الناس جميعا ، والمراد بها الساعة ، كما قال تعالى : – (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) والسؤال للتشويق والترغيب في الاستماع .
وقوله تعالى : – (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ) أي : – ذليلة ومهانة ، وخاضعة ، (عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ) أي : – تعمل في النار عملاً يصيبها منه النصب والتعب ، وعمل أهل النار ، أعاذنا الله والمسلمين ، هو صعودهم فيها إلى جبال عالية ، ثم نزولهم ، وهكذا ، كما قال تعالى : – (سأرهقه صعودا) (تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً) أي : – حارة شديدة ، (تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ) كما قال تعالى : – (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ) أي : – شديد الحر قد انتهت درجة غليانه .
(لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ) وهو نبتة تنبت في البادية ، يعرفها العرب ويسموها الشبرد ، تأكلها الإبل خضراء ، فإذا يبست سميت الضريع ، وصارت سامة ، فلا تأكلها الإبل ، (لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ) .

والإنسان يأكل الطعام لغرضين : –

١) ليسد الجوع .
٢) وليسمن .

وطعام أهل النار لا يحقق لهم شيئاً من ذلك .

وقوله سبحانه وتعالى : – (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ) وجوه يومئذ ناعمة أي : – يعرف فيها النعيم ، لسعيها راضية ، أي : – أنها رضيت عما قدمته في الدنيا ، من طاعة الله سبحانه وتعالى : – (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ) أي : – رفيعة بهية ، في غرفات بعضها فوق بعض ، (لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً) أي : – لا فيها لغو ، ولا زور ولا كذب ولا صخب ، ولا ضجيج ، إنما سكون تام ، وهدوء تام ، والكلام المسموع فيها كله سلام ، وأمان وهذه نعمة يقدرها أهل الجنة ، الذين هم عن اللغو معرضون ، وهذا من النعيم المعنوي الروحي ، فهم فرحون بهذا النعيم فرحهم بغيره من نعيم الجنة الحسي أو يزيد .
وقوله تعالى : – (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ) أي : – سارحة ، (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ) أي : – عالية رفيعة ، ناعمة كثيرة الفرش ، عليها الحور العين ، (وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ) أي : – حاضرة ، مصفوفة ، لا يطلبونها ، لأنها حاضرة دائمة . (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ) النمارق : – هي الوسائد ، والزرابي : – هي البسط والسجاجيد ، وهي أسماء مشتركة بين ما في الجنة ، وما في الدنيا ، وشتان بين المسمى ، والمسمى .
ثم لفت الله تبارك وتعالى ، أنظار العرب المشركين إلى بعض مظاهر قدرة الدالة على وحدانيته التي لا تكلفهم بحثاً ، ولا عناء ، ولا سفر ، فقال : – (أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) .

وإنما خصت الإبل بالذكر : –
١) لأنها تختلف في خلقها عن خلق سائر الأنعام .
٢) وهي أنفس أموال العرب وأحبها إليهم .
٣) وهي سفينة الصحراء كما يسمونها .

(وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) .
(وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ) من الذي رفعها ، ومن الذي يمسكها أن تقع على الأرض ، (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ) لألا تميد الأرض بأهلها (وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) وبسطت ومدت ومهدت ، فنبه البدوي على الاستدلال مما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه ، والسماء التي فوق رأسه والجبل الذي تجاهه ، والأرض التي تحته ، على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف ، وأنه الإله الذي يستحق العبادة دون سواه .
ولما لفت الله أنظار العباد إلى مظاهر قدرته ، أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يذكر فقال : – (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) فكرهم بأيام الله ، وذكرهم بآياته ، وذكرهم بنعيم الجنة لعلهم يطمعون فيها فيؤمنوا ، وذكرهم بعذاب النار عساهم

يخشونها فيقلعوا عن الكفر ، (إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ) ليس عليك هداهم ، (لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) فأنت لا تملك قلوب العباد حتى تقهرها على الإيمان ، وحتى تجبرها على إتباعك .
(إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ) يعني : – من تولى عنك وكفر بما جئت به فسوف يعذبه الله العذاب الأكبر : – يعني عذاب جهنم .

فالله تعالى يعذب الكافرين في الدنيا بأنواع من العذاب مختلفة : –
١) يعذبهم بالبأساء والضراء .
٢) بالأمراض والأوجاع .
٣) بالقتل والتعذيب والتشريد . ونحو ذلك .

فمن تاب منهم تاب الله عليه ، ومن كفر رد إلى العذاب الأكبر في الآخرة ، كما قال تعالى : – (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) ، (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ) أي : – مرجعهم ، (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) فمن يعمل مثقال ذرة خير يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وما ربك بظلام للعبيد .

أما سورة الفجر

فهي سورة مكية ، استفتحت بالقسم من الله عز وجل .

ثم تحدثت عن ثلاثة أمور : –
الأول : – مصارع الغابرين .
الثاني : – سنة الله في ابتلاء الناس بالخير والشر .
الثالث : – أهوال يوم القيامة .

استفتحت الله السورة : – بالقسم فقال : – (وَالْفَجْرِ) وهو معروف وهو الصبح ، وقد أقسم الله بالصبح (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) .
(وَلَيَالٍ عَشْرٍ) عشر ذو الحجة ، أقسم الله تعالى بها ، لفضيلتها ومكانتها الخاصة ، التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : – " ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى من هذه العشر ، يعني : – عشر ذي الحجة ، قالوا : – ولا الجهاد في سبيل الله يا رسول الله ، قال : – ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء " .
(وَالشَّفْعِ) الزوج ، (وَالْوَتْرِ) هو الفرد .

وقد ذكر المفسرون : – في المراد بها أقاويل كثيرة ، وأرجحها أنه يجب إبقاء اللفظ على عمومه لأن الله تعالى لم يخص شفعاً دون شفع ، ولا وتر دون وتر ، فكل شفع هو داخل في عموم هذا القسم ، وكذلك كل وتر .

وقله تعالى : – (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) أي : – يذهب بظلامه ، كما قال : – (وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ) فمتى جاء الفجر ، ذهب الليل .
وقوله تعالى : – (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ) الحجر : – هو العقل ، وسمي العقل حجرا : – لأنه يحجر صاحبه ، أي : – أن يمنعه من الفواحش ، يقال : – حجر الحاكم على فلان ، إذا منعه من التصرف في ممتلكاته لدين أو غيره ، وهذا السؤال بعد ذلك القسم كقولك لإنسان قد وضحت له مسألة فأتيت عليها بكل برهان ، ثم قلت له : – أتكفيك هذه البراهين ، وأنت لا تريد بسؤالك هذا إلا إلزامه تعنى أنه ليس له بعد هذا البيان بيان ، ولا بعد هذه البراهين براهين .
ثم لفت الله تبارك وتعالى الأنظار إلى مصارع الغابرين ، تحذير للمكذبين ، أن يصيبهم مثل ما أصاب الأولين ، وجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، تثبيتاً لقلبه ، وربطاً على فؤاده ، حتى يعلم أن العاقبة له كما كانت لإخوانه المرسلين ، (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) إرَمَ بدل من عاد ، وكان القوم ذوي أجسام طويلة حتى قيل : – كان طول الرجل ، اثني عشر ذراع ، وعليه فلا بد أن تكون البيوت عاليه ، مما يستلزم طول العماد ، وقد كانوا أولي قوة وأولي بأس شديد ، ولذا قال تعالى : – (الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ) ، ولم يذكر الله تبارك وتعالى هنا ما فعل بهم ، ولكنه ذكره في مواضع كثيرة منها قوله تعالى : – (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ) .
(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ) أي : – قطعوا الصخر ، واتخذوا البيوت ، يقال : – جاب فلان البلاد إذا قطعها . (وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ) .

قال بعض العلماء : – المراد بالأوتاد : – الجنود الذين يثبتون الملك ، كما تثبت الخيمة الأوتاد .
وقال بعضهم : – إن فرعون كان إذا عذب أحد مد له أربعة أوتاد ، وجعل كل طرف من أطرافه في وتد ، وأمر زبانية أن يرموه بالصخر والحجارة حتى الموت .

وقال بعضهم : – المراد بالأوتاد : – الأهرامات لأنها تشبه الأوتاد .
(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ) الطغيان : – هو مجاوزة الحد ، والطغاة يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، ولذا قال تعالى : – (فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) وقد فصل الله تبارك وتعالى كيف كان أخذه لأولئك الطغاة ، فقال : – (فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا) .
(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) لكل ظالم ، ولكل طاغية ، فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ، إن الله عزيز ذو انتقام ، ولا تحسبن الله غافل عما يعمل الظالمون .
ثم قال تعالى : – (فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلاَّ) ليس الأمر كما قال ، لم يكرم الله تبارك وتعالى من وسع عليه رزقه ، ولم يهن من قدر عليه رزقه ، فإن الله يوسع على من يحب ومن لا يحب ، ويقدر لمن يحب ومن لا يحب ، وربما وسع على من لا يحب وقدر لمن يحب ، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خليل الله يربط الحجر على بطنه من الجوع ، وكان يمر الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهله في شهرين وما يوقد في بيت من بيوت

رسول الله نار ، فليست هناك علاقة بين سعة الرزق وحبة الله ، ولا بين ضيق الرزق وسخط الله ، بل الله يبتلي عباده بما يشاء ، يبتلى هذا بالسعة لينظر أيشكر أم يكفر ، ويبتلى هذا بالضيق لينظر أيصبر أم يكفر ، ولا سعيد من إذا وسع عليه شكر ، وإذا قدر عليه رزقه صبر .

ثم قال تعالى : – (بَل لّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) وهذه أفعال المكذبين بيوم الدين الكافرين برب العالمين كما قال تعالى : – (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) . وقوله تعالى : – (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَّمًّا) المراد بالتراث : – الميراث ، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ، ولا الصبيان حتى جاء الإسلام فقال الله تعالى : – (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا) وقال سبحانه : – (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ) يعني : – الذين لا تؤتوهم ما كتب لهم فأعطى المرأة حقها ، والصغير حقه ، وإن الإنسان ليحزن حين يرى المسلمين يفعلون فعل الجاهلية ، (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَّمًّا) ولا يأتون كل ذي حق حقه .
وقوله سبحانه : – (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) أي : – كثير ، وهذه فطرة فطر الإنسان عليها ، ولا يذم عليها إلا إذا حمله هذا الحب ، على أن يحرص على المال حرصاً شديداً فيكسبه من حرام ، ثم لا يؤدي حق الله تبارك وتعالى فيه .

ثم ذكر الله تبارك وتعالى بعض أهوال يوم القيامة وحال الناس يومئذ ، فقال : – (كَلاَّ) أي : – حقاً (إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) وذلك يوم القيامة ، كما قال : – (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) ، (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) وذلك بعد شفاعة سيد الأنبياء عليهم السلام ، ليجيء الرب لفصل القضاء بين العباد ، وقد طال عليهم المقام ، في أرض الموقف ، الشمس فوق رؤوسهم دانية ، وجهنم بهم محيطه ، وزحام شديد ، فاشتد الحر وكثر العرق حتى ذهب في الأرض سبعين ذراع ، يجيء الرب سبحانه وتعالى يوم القيامة كيف يشاء ، من غير تمثيل ولا تكييف ولا تحريف ولا تعطيل (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) أي : – قائمين صفوفاً صفوف ، كما قال سبحانه : – (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلا) ، وقال : – (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا) .
(وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ) قال عليه الصلاة والسلام : – " يؤتى بجهنم يومئذ ، لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها " .
(يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ) أي : – يفيق من غفلته ، وينتبه من رقدته ، ويعلم أنه قصر في نفسه ، وفرط في جنب ربه ، (وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى) أي : – كيف تنفعه الذكرى الآن ، وقد أفضى إلى ما قدم ، (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) فقد علم أن الحياة الحقيقية هي التي بدأت وليست التي انقضت كما قال تعالى : – (وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) .
(فَيَوْمَئِذٍ لّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) (إن بطش ربك لشديد) وإن أخذه لأليم ، وفي وسط هذا الهول المروع ، وهذا العذاب والوفاق الذي يتجاوز كل تصوير .
تنادى النفس المؤمنة من الملأ الأعلى (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي) ارجعي إلى ربك أي صاحبك ، وهو الذي كانت تعمره في الدنيا ، حالة كونك راضية عما أعد لك في الجنة ، مرضية ، قد رضي الله

عنك ، كما فكرها في القرآن الكريم بقول رب العالمين عن أوليائه المؤمنين (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) فادخلي في عبادي أي : – ليحيوا بعد مماتهم ، وادخلي جنتي التي بها وعدتي .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يمتعنا بسماع هذا النداء الحلو العذب المطمئنة يوم القيامة .

وأما سورة البلد

فهي سورة مكية .

استفتحت : – بالقسم على حقيقة في حياة الإنسان ثابتة ، (لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي كَبَدٍ) ثم ذكرت دلائل قدرة الله على هذا الإنسان الذي يحسب أن لن يقدر عليه أحد وكشفت له عن صعوبة الطريق ، وعن العقبات التي تعترضه في سيرة إلى ربه ، وحثته على الاجتهاد على اقتحام هذه العقبات ، وبينك له الأمور التي يستعين بها على ذلك .

ثم ختمت : – بالوعيد للذين وقفوا أمام هذه العقبات عاجزين عن اقتحامها لتسلط النفس والهوى والشيطان عليهم ، (أولئك أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ) .
قوله تعالى : – (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ) المراد به : – البلد الحرام مكة ، (وَأَنتَ حِلٌّ) أي : – حلال أو مقيم (بِهَذَا الْبَلَدِ) .
(وَوَالِدٍ وَمَاوَلَد) وهو ظاهر يشمل كل والد وكل ولد ، وجواب القسم (لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي كَبَدٍ) أي : – في تعب ومشقة ، وجهد وكد ، وكفاح وكد ، ودك كما سبق في الانشقاق (يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيه) .
(أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ) يعني : – أيظن ألا يسأل ويحاسب على جميع أعماله ، فهو (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالا لُّبَدًا) أي : – كثير .
(أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ) أيظن أن الله لم يره ، (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ) يبصر بهما ، (وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ) ينطق اللسان وتساعده الشفتان ، (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) أي : – بينا له الطريقين طريق الخير وطريق الشر ، حتى صار كل طريق ظاهراً وواضحاً وضوح النجد ، وهو الأرض المرتفعة .
(فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) معنا فلا اقتحم العقبة ، فهو حض من الله للإنسان على اقتحام العقبة : – وهي في الأصل الطريق في الجبل ، سميت كذلك : – لصعوبة سلوكها ، والمراد بها هنا : – كل ما يمنع الإنسان من سلوك طريق الخير ، من النفس والهوى والشيطان وثقل التكليف والاقتحام معروف وهو الدخول في الشيء بقوة ، وقوله تعالى : – (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ) سؤال لتفخيم شأنها وتعظيم أمرها .
ثم أرشد إلى كيفية اقتحامها فقال : – (فَكُّ رَقَبَةٍ) والمراد بفكها : – عتقها ، (أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ) وخص ربنا سبحانه الإطعام باليتيم ذي المقربة ، لأن الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة ، أو مسكينا ذا متربة ، وهو البائس المعدوم الذي لا يجد شيئا ، حتى إنه ليفترش التراب من الحاجة .

(ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) فالإيمان : – هو أساس قبول الأعمال إذا توفرت شروط القبول الأخرى ، وإلا فالكافر لا يقبل منه عمل أبداً كما قال تعالى : – (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلا وَهُمْ كَارِهُونَ) .

(وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ) .

نعوذ بالله من الخذلان ونسأله الهداية والتوفيق .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبة أجمعين .

التفسير الإجمالي

المحاضرة السادسة عشرة

تفسير سور الشمس والليل والضحى والشرح

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير سور : – الشمس ، والليل ، والضحى ، والشرح .

سورة الشمس ، والليل ، والضحى ، والشرح .

أما سورة الشمس

فهي سورة مكية ، انقسمت قسمين : –

الأول : – يتضمن حقيقة النفس الإنسانية ، واستعداداتها الفطرية ، ودور الإنسان في شأن نفسه وتبعيته في تقرير مصيرها .

والثاني : – يتضمن قصة ثمود و وتكذيبها بإنزال رسولها ، وعقرها للناقة ، ومصرعها بعد ذلك وزوالها ، وهي نموذج من الخيبة التي تصيب من لا يزكي نفسه ، فيدعها للفجور ، ولا يلزمها تقواها .

يقول الله تعالى : – (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)

يقسم ربنا سبحانه وتعالى ، بهذه الخلائق والمشاهد الكونية ، كما يقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها ، ومن شأن هذا القسم : – أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى ، وأن يوجه إليها القلوب يتأملاها ، ويتدبر ماذا لها من قيمة ، وماذا بها من دلاله حتى استحقت أن يقسم به الجليل العظيم سبحانه ، وهذا القسم (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) ظاهر المعنى ، و أما قوله تعالى : – (وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) أي : – سواها و بسطها ، (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) أي : – خلقها سوية مستقيمة ، على الفطرة القويمة ، كما قال تعالى : – (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) الروم الآية ٣٠ ،

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : – " كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه ، يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه " .

كما تولد البهية ، بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء .

وقوله تعالى : – (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) أي : – فأرشدها إلى فجورها وتقواها ، أي : – بين ذلك لها ، وهداه إلى ما قدر لها كما قال تعالى : – (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) ، وقال سبحانه : – (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) ، وهذه الآيات كلها تفيد أن الإنسان : –

١) هو إرادة مزدوجة ، وقدرة كذلك .

٢) وهو يريد الخير كما يريد الشر .

٣) وله من القدرة ما ينفذ به ما أراده من الخير أو الشر .

٤) وهو مكلف بفعل الخير واجتناب الشر ، فإن فعل ، فقد أفلح و أنجح ، وإن لم يفعل فقد خاب وخسر .
قال تعالى : – (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) أي : – قد أفلح من طهر نفسه من دنس الكفر والخطايا ، وقد خاب من أخفى دوافع الخير في نفسه حتى أماتها ، وأظهر دوافع الشر حتى قواها ثم تبعها ، وتزكية النفس لا تكون إلا بالإيمان والعمل الصالح ، وما شرعت العبادات إلا لتزكية النفس ، قال الله تعالى عن الصلاة : – (إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) وقال عن الزكاة : – (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن الصوم : – " الصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم ، فلا يرفث يومئذ ، ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله ، فليقل إني امرؤ صائم " .
وقال الله تعالى عن الحج : – (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : – " من حج فلم يرفث ، ولم يفسق ، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه " . وهكذا تجتمع العبادات كلها ، على تحقيق تزكية النفس ، التي لا فلاح للإنسان إلا بها .

ثم بعد ذلك يعرض الله سبحانه وتعالى : – نموذجاً من نماذج الخيبة ، التي ينتهي إليها من يدسي نفسه ، فيحجبها عن الهدى ، ويدنسها ، ممثلاً هذا النموذج ، فيما أصاب ثموداً من غضب ، ومكان هلاك ، فيقول سبحانه وتعالى : – (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا) لقد أرسل الله إلى ثمود أخاهم صالح ، فقال : – (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) ، فكذبوا رسولهم ، وعصوا أمر ربهم ، كما قال الله تعالى : – (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) وكان ذلك ، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان ، والبغي ، ولذا قال هنا : – (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا) ولقد كانوا طلبوا من صالح آية ، ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة ، لصخرة عينوها ، وأعطوه عهودهم ومواثيقهم لئن جاءهم بها ليؤمنن به ، فدعا صالح ربه ، فأخرج الله لهم الناقة ، فقال لهم صالح : – قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فزروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء ، فيأخذكم عذاب أليم ، ولكن القوم نقدوا عهودهم ، ومواثيقهم ، وهموا بعقر الناقة ، فانبعث بذلك أشقاهم . فتعاطي فعقر ، قال تعالى : – (إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا) ونسب العقر إليهم ، مع إن العاقر واحد ، لأنهم قد رضوا بذلك ، وقد جرت حكمة الله تعالى ، وحكمة أن الراضي بالمنكر ، شريك لفاعلة ، كما قال تعالى : – (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ) النساء الآية ١٤٠ ، ولذا عم العذاب قوم ثمود ، (فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَ) يعني : – ما خاف الله من أحد حين سوى الأرض بقوم ثمود الذي يخافهم الجبار ، والذي لا يخاف عاقبة بطشه ، يكون بطشه شديدا ، وأخذه أليم ، وهكذا الله سبحانه وتعالى كما قال : – (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) ، وقال : – (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) الروم الآية ١٠٢ ، إن أخذه أليم شديد .
نسأل الله تعالى العفو والعافية .

أما سورة الليل

فهي سورة مكية .

استفتحت : – بالقسم من الله تعالى ، على اختلاف سعي الناس في هذه الحياة ، ثم أنذر الله تعالى عباده ناره الحامية ، وبين لهم كيف يتقونه ، يقول الله تعالى : – (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) يقسم الله تعالى بالليل إذا

يغشى الكون بظلامه عند مجيئه ، وبالنهار إذا تجلى بضيائه وإشراقه ، فأزاح عتمة الليل ، وقوله تعالى : – (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى) أي : – أقسم بالله العظيم الذي خلق بقدرته الذكر ، والأنثى من ماء واحد ، وجواب القسم (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) يعني : – إن سعيكم لمختلف ، مختلف في حقيقته ، مختلف في بواعثه ، مختلف في نتائجه ، فمنكم المؤمن والكافر ، والبار والفاجر ، والمطيع والعاصي ، والجواد والبخيل ، ومنكم من يسعى في فكاك نفسه وعتقها ، ومنكم من يسعى في عطبها ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : – " كل الناس يغدوا فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها " ، وقول الله تعالى : – (فَأَمَّا مَن أَعْطَى) أي : – أعطى حق السائل والمحروم ، واتقى البخل والشح ، وصدق بالحسنى ، وهي الجنة في الآخرة ، وأن الله يخلف عليه في الجنة خيراً مما أنفق وأعطي ، كما قال عز وجل : – (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) .

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) حتى يصير فعل الخير عليه يسير لا يجد مشقة في فعله ، ولا يجد حرجاً منه ، فيكون دائما مسارعاً إلى طاعة الله ، وأما من بخل بماله ، فلم يعطي حق الفقراء ، والمساكين ، واستغنى عن ربه ، لظنه أن الغنى يكفيه ، كما قال تعالى : – (إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) العلق الآية ٦ – ٧ .

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى) فلم يثق بوعد الله أن ينفق عليه إذا أنفق . (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) فتكون طاعته عليه عسيرة ، وفعل الخير عليه شاق ، بينما المعصية عليه بخلاف ذلك ، فهو دائما سريعاً إلى معصية الله ، بطيئا عن طاعته .

وقوله تعالى : – (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى) يعني : – أن هذا الذي بخل واستغنى ، إذا تردى في جهنم يوم القيامة ، لن يغني عنه ماله الذي حرص عليه ، وعدده من العذاب شيئا ، كما قال تعالى : – (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ) .

وقوله سبحانه : – (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى) أي : – علينا أن نبين للناس الحلال والحرام ، وطريق الخير وطريق الشر ، ليهلك من هلك عن بينه ، ويحيا من حيي عن بينه ، وقد فعل سبحانه ، فأرسل رسله مبشرين ومنذرين ، وأنزل كتبه فيها الهدى والنور ، فتحققت الهداية ، كما قال تعالى : – (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

وقوله تعالى : – (وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالأُولَى) يعني : – أنه سبحانه له الأمر في الأولى والآخرة ، وهو الذي بيديه ملكوت كل شيء يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويوفق من يشاء ، ويخذل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، فمن أراد الدنيا فليطلبها من الله ، ومن أراد الآخرة فليطلبها من الله ، لأن له سبحانه ، الآخرة والأولى .

وقوله تعالى : – (فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى) أي : – تتوهج ، والإنذار : – هو الإعلام مع التخويف ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذار ، وإنما أنذر الله العباد ليعملوا على وقاية أنفسهم من هذه النار الحامية ، التي فضلت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءاً ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : – " والتي أهون أهلها عذاباً أبو طالب ، وهو منتعل نعلين يغلي منهما دماغه " ، كما أخبر صلى الله عليه وسلم ، وقد أمر الله تعالى المؤمنين صراحة أن يقوا أنفسهم هذه النار ، فقال عز وجل : – (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) التحريم الآية ٦ .

وقوله تعالى : – (لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى) أي : – لا يدخلها دخولاً ، بحيث تحيط به من كل جانب ، إلا الأشقى ، كما قال تعالى : – (لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ) ، وقال لهم : – من فوقهم ظلل من النار ، ومن تحتهم ظلل ، ثم فسر الأشقى الذي يدخلها فقال : – (الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى) أي : – كذب بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وبالحق الذي جاء به ، وتولى عن النبي صلى الله عليه وسلم وأعرض عنه .

وقوله تعالى : – (وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى) أي : – سيزحزح عن النار ، وينجو منها ومن حرها الأتقى ، وذلك أن الناس كلهم ، يردون النار يوم القيامة ، كما قال الله تعالى : – (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) مريم الآية ٧١ – ٧٢ .

(وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى) أي : – ينفق في سبيل الله ، يزكي نفسه بالنفقة ، كما سبق بيانه في صورة الشمس ، وقوله تعالى : – (وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى) يعني : – أنه لا ينفق مكافأة ولا جزاء ، فإن الناس في الإنفاق منهم من ينفق ينتظر مكافأة بأحسن مما أنفق ، أو بمثله ، ومنهم من ينفق مكافأة وجزاء لمن أنفق عليهم ، ومنهم من ينفق رياء وسمعة ، ومنهم الأتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، وذلك الأتقى ، هو الذي يجنب النار يوم القيامة ، ويزحزح عنها ، وليسوف يرضى في الدنيا عن ربه وعن دينه وعن سعيه ، ولسوف يرضى في اليسر والعسر ، والمنشط ، والمكره ، والشدة والرخاء ، والعافية والبلاء ، وسوف يكون دائما راضيا ، آمناً مطمئن لا يقلق ولا يترعج ، ولا يستعجل النتائج ، لأنه قد رضي بربه ، ورضي عنه ، ولسوف يرضى في الآخرة ، حين يلقى الله عز وجل ، نسأل الله سبحانه وتعالى ، أن يجعلنا من الذين رضي عنهم ، ورضوا عنه .

أما سورة الضحى

فهي سورة مكية ، روى البخاري عن جندب ابن سفيان رضي الله عنه قال : – اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثة ، فجاءت امرأة فقالت : – يا محمد ، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين ، أو ثلاثة ، فأنزل الله عز وجل : – (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) ، والضحى معروف .

(وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) أي : – سكن وأظلم ، كقوله تعالى : – (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) وجواب القسم (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) أي : – ما هجرك بعد أن وصلك ، ولا أبغضك بعد أن أحبك .

(وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى) على كثرة ما أوتيت في الدنيا من فضل ، فالآخرة خير لك من الأولى .

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) والأولى إبقاء هذا الوعد على عمومه ، إلا أن من المبشرات ، أنه يدخل في هذا الوعد ، ما رواه مسلم في الصحيح ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قام ذات ليلة يصلى ، فقرأ المائدة ، حتى أتى على قول الله تعالى : – (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فأخذ يردد الآية ويبكي ، فقال الله تعالى : – يا جبريل ، آت محمد فأسأله ما يبكيك ، وربك أعلم ، فآتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله ، فقال يا جبريل أمتي ، يا جبريل أمتي ، فعرج جبريل فذكر ما قاله محمد ، وربك أعلم ، فقال الله تعالى : – يا جبريل ، آت محمد فقل له : – لا تبكي فإنا سنرضيك في أمتك .

ثم أخذ الله تعالى يعدد على محمد صلى الله عليه وسلم ، نعمه ، فقال : – (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) ومعلوم سيرته صلى الله عليه وسلم ، أنه أباه توفي وهو جنين في بطن أمه ، ثم توفيت أمه وهو ابن ست سنين ، فكفله جده عبد المطلب ، ثم توفي عبد المطلب ، وهو ابن ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب ، وألقى الله تعالى محبة محمد في قلب أبو طالب ، فكان أقرب إليه من أبنائه ، فأواه وأحسن إليه ، ولم يزل يحوطه برعايته وعنايته ، حتى بعث ، فنصره ودافع عنه ، وكف أذى قومه عنه مع أنه كان على دين قومه ، ولم يؤمن بنبوة ابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان ذلك كله بقدر الله ، وحسن تدبيره ، لنبيه صلى الله عليه وسلم .

(وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) أي : – وجدك غافلاً عن هذا الدين ، وهذا الوحي ، وهذه الشريعة ، فاختارك لها ، ومن عليك بها دون سائر قومك ، وهذه الآية كقوله تعالى : – (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ

نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ، وكقوله سبحانه : – (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ) .

وقوله تعالى : – (وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى) أي : – وجدك فقير ذا عيال ، فأغناك أولاً بغنى النفس ، وهو الأصل ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس ، فأغنى الله نبيه غنى النفس ، ورزقه القناعة ، وهي كما يقولون كتر لا يفنى ، كما أغناه بكسبه وتجارته في مال خديجة ، رضي الله عنها ، ثم تزوجها فكان مالها له ، فإذا علمت فضل الله عليك يا نبينا (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ) لقد كنت يتيما فآواك الله فأحسن إلى اليتيم وأكرمه ، لا تقهره ولا تظلمه ، ولا تدفعه ولا تطـرده ، ولقـد أحسن صلى الله عليه وسلم إلى اليتامى ، وأمر بالإحسان إليهم ، ونهى عن أذيتهم وظلمهم ، وكان يقول : – اللهم إني أحرج حـق الضعيفين : –اليتيم ، والمرأة .

وقوله تعالى : – (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ) فمن سألك شيئا من مالك ، أو من جاهك فلا تنهره على سؤاله ، ولكن إما أن تعطيه ، وإما أن ترده بما ميسور من القول ، كما قال تعالى : – (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلا مَيْسُورًا) الإسراء الآية ٢٨ ، كما أن رد السائل يشمل أيضا طالب العلم إذا سأل عن مسألة ، فعلى العالم ألا ينهره بل يجب أن يكون به رفيقاً وعليـه حليم ، وعليه أن يصبر على قلة فهمه ، ويعيد عليه القول حتى يفهمه .

وقوله تعالى : – (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) لأن التحدث بالنعمة شكر ، والشكر من موجبات الزيادة ، كما قال تعـالى : – (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) إبراهيم الآية ٧ .

ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي ، وعلى والدي ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصـالحين ، اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) .

أما سورة الشرح

فهي سورة مكية ، شديدة الاتصال بسورة الضحى ، ولذا كان بعض السلف يعتبرهما سورة واحدة ، فلا يفصل بينهما بالبسـملة ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى ، عدد على رسوله صلى الله عليه وسلم نعمه ، التي ابتدئها في سورة الضحى ، (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى) (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) .

وقوله تعالى : – (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) سؤال للتقرير ، ومعناه : – قد شرحنا لك صدرك ، ومن شرح الله صدره ، يسر له الخير ، وأعانه على البر ، ورزقه حسن الخلق ، سعة الصدر ، فهو دائما يسع الناس بحلمه ، ويسعهم بحسن خلقه ، وهو دائما هين لـين ، رفيق رحيم ، ومن كن كذلك ، وفق في دعوته ، وأقبل الناس عليه ، كما قال الناس تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : – (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) .

ولذلك لما كلف الله تعالى موسى عليه السلام أن يأتي فرعون ، قال موسى عليه السلام : – (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) أي : – وسع لي صدري حتى أتحمل الأذى القولي والفعلي ، ولا أضيق صدراً بما أسمع من أذى ، ولا بما ينالني من أذى ، فإن واسع الصدر لا يحزن ، ولا يغتم لكلمة يسمعها ، أو أذيته تصيبه ، وإنما يتلقى الأذى على الرحب والسعة ، ويصبر على ذلك ابتغاء وجه ربه الأعلى .

وقوله تعالى : – (وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ) من المعلوم أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من كبائر الذنوب قبل النبوة وبعدها ، فلم يبقى إلا الصغائر ، التي ربما تكون عن اجتهاد فهي مغفورة ، إلا أن شرف الأنبياء ، وعلو شأنهم يجعل النبي إذا كانت منه الصغيرة ولو عن اجتهاد ، يراها شيئاً عظيم ، ويحمل همها ، وهذا الإحساس ربما وجده بعض الصالحين من المؤمنين ، فالأنبياء أولى بذلك ، فتفضل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ، وغفر له ما كان من نحو ذلك ، فوضع عنه بذلك وزره ، الذي أنقض ظهره ، والنقيض هو الصوت الذي يسمع من المحمل فوق ظهر البعير من شدة الحمل ، وهذه الآية كقوله تعالى : – (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) .

وقوله سبحانه : – (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) فلا يذكر الله إلا وذكرت معه ، في الأذان ، والإقامة ، والصلاة ، والخطبة ، ونحو ذلك ، حتى لو أن رجلاً آمن بالله ، وكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لم ينفعه إيمانه بالله .

وقوله تعالى : – (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) يعني : – مع الكرب فرج ، ومع الشدة رخاء ، فليصبر الإنسان فإن مع العسر يسرا (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) .

قال العلماء : – عرف العسر ونكر اليسر ،فتوحد العسر ، وتعدد اليسر ، ولذا جاء عن بعض السلف : – لن يغلب عسر ، يسرين .

وقوله تعالى : – (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ) .

قال بعض العلماء : – إذا فرغت من أشغال الدنيا ، فانصب في عبادة ربك .

وأرجع الأقوال : – إذا فرغت من عمل ، فانصب في عمل آخر ، إذا فرغت من عمل الدنيا ، فانصب في عمل الآخرة ، وإذا فرغت من عمل الآخرة فانصب في عمل الدنيا ، و إياك والكسل ، و إياك والخمول ، و إياك واللهو ، و إياك واللعب .

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه مر برجلين يتصارعان فقال : – ما بهذا أمرنا بعد فراغنا ، وكان عمر رضي الله عنه يقول : – " إني لأكره لأحدكم أن يكون سبهللَ ، لا في عمل الدنيا ، ولا في عمل الآخرة " .

وقال بعض العلماء : – هذه الآية حلت مشكلة الفراغ عند المسلمين ، ولذلك لم يشتكي الصدر الأول مما يشتكي منه الناس اليوم ، يدلك على ذلك قول عروة بن الزبير ، وهو حدث صغير السن ، لعائشة رضي الله عنها ، وكانت خالته : – إن الله يقول : – (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) إذا فلا جناح على الرجل أن يدع الطواف بين الصفا والمروة ، فقالت عائشة : – لا يا ابن أختي ، ليست هكذا ، ولو كانت كما فهمت لقال الله : – (فليس عليه جناح ألا يطوف بهما) والشاهد : – أن هذا الصبي اليافع ، هكذا كان يقرأ القرآن ويتدبر معانيه ، وهكذا كان حريصا على التثبت من صحة فهمه ومن كان كذلك ، كيف لن يكون عنده فراغ أبد ، فالسعيد الموفق من حافظ على وقته ، فإنه رأس ماله في تجارته مع الله سبحانه وتعالى ، وإنها لجريمة كبرى هذه المقولة وهي : – (تعال نضيع الوقت) ولسوف يعلم هؤلاء قيمة الوقت ، إذا جاء أحدهم الموت ، ولسوف يطلب قليلا من الوقت يتدارك فيه ما فات ، وهيهات هيهات ، قال تعالى : – (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) فإذا فرغت من عمل فانصب في عمل آخر ، ولا تكن سبهللَ ، لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة .

(وإذا ربك فارغب) اجعل نيتك لله ، ورغبتك إلى الله عز وجل ، اجعل كل عملك لله سبحانه وتعالى ، وليكن شعارك ما أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم : - (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يبارك لنا في أوقاتنا وأعمالنا ، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .

هذا والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الإجمالي

المحاضرة السابعة عشرة

تفسير سور التين والعلق والقدر والبينة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آلــه وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير هذه السور : – التين ، والعلق ، والقدر ، والبينة .

سورة التين ، والعلق ، والقدر ، والبينة .

أما سورة التين

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) .

أما سورة التين ، فقد استفتحها : – الله تبارك وتعالى بقوله : – (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ) يقسم ربنا سبحانه وتعالى بالتين والزيتون ، وهما معروفان ، وإنما خصهما بالذكر تشريفاً لهما وتكريم ، وقوله تعالى : – (وَطُورِ سِينِينَ) هو : – الجبــل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام بسيناء ، بالواد المقدس طوى ، وهذا البلد الأمين يعني : – مكة .

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) هذا هو جواب القسم ، وهو أن الله خلق الإنسان في أحسن صورة ، كما قال تعالى : – (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) ، وقال تعالى : – (يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَــرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) وهذه نعمة تستحق الشكر ، فمن آمن قد شكر ، ومن كفر فقد كفــر ، وسيرد إلى أسفل سافلين ، كما قال تعالى : – (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) أي : – إلى النار ، والنار درجات بعضها أسفل من بعض ، وأسفلها أشدها عذاب ، قال الله تعالى : – (إن الله جامع المنافين والكافرين في جهنم جميعا) وقال : – (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِــي الــدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا) ومن رد إلى النار قبح منظره ، وساءت صورته ، قال الله تعالى : – (ومن خفت موازينــه) فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوهم النار وهم فيها كالحون أي عابسون ، قد بدت أســنانهم ، وتقلســت شفاههم ، كالرأس المشوي على النار ، وقال الله سبحانه وتعالى : – (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) وقال الله تعالى : – (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُــوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا) وقال تعالى : – (وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) وأقبح صورة أن تكون الوجوه سوداً ، والعيون زرقا ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : – " إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً ، وإن ضرسه مثل أحد ، وإن مجلسه من جهنم ، ما بــين مكة والمدينة " ، فما أقبح هذه الصورة ، وما كان أحسن صورة هذا الإنسان في الدنيا ، نسأل الله السلامة والعافية .

ثم استثنى ربنا سبحانه من ذلك المصير ، من آمن وعمل صالحاً فقال : - (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) إلا الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم ، فإنهم في جنات النعيم ، على صورة أجمل من الصورة التي كانوا عليها في الدنيا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : - " إن أول زمرة يدخلون الجنة ، على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم كأشد كوكب دري في السماء إضاءة ، ثم يزاد في جمالهم كل أسبوع " ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال ، فتحثوا في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمال ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم ، والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالاً ، فيقولون : - وأنتم والله قد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً .

وقوله تعالى : - (فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) أي : - أجر دائم ، غير منقطع ، كما قال تعالى : - (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) وكما قال حكاية عن أهل الجنة وقد وصف نعيمهم : - (إن هذا لرزقنا ما له من نفاد) .

وقوله تعالى : - (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ) يعني : - ومن هذا الذي يكذبهم يا نبينا ، وقد جئتهم بالبينات والهدى ، ومن هذا الذي يكذب بالحساب والجزاء ، (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) ، بلى ، ومن حكمته أن يبعث الناس بعد الموت ، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، ولو لم يكن بعث كما ظن المكذبون ، لأسوى الظالم والمظلوم ، والبر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، والله تعالى قد نفى التسوية بينهم جميعا ، فقال عز وجل : - (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ) ، وقال سبحانه : - (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) فلا بد من البعث للفصل بين العباد ، ومجازة كل عامل بعمله ، لأن عدم البعث يتنافى مع حكمة الله عز وجل ، (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) ، سبحانه بلى .

أما سورة العلق

فهي سورة مكية ، وصدرها أول ما نزل من القرآن ، وهو يحكي كيف بدأ الوحي ، وما بعد ذلك من الآيات فإنه يذكر حقيقة من حقائق الإنسان ، وهي أنه إذا استغنى طغى ، إلا من رحم الله ، ثم تذكر الآيات ، قصة الشقي أبي جهل ، ونهيه النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ، وتوعد الله تعالى إياه (كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَه سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ) .

روى البخاري بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، أنها قالت : - أول ما بدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الوحي ، الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤية إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلوا بغار حراء فيتحنث فيه ، والتحنث : - هو التعبد ، فيتحنث فيه الليالي ذوات لعدد قبل أن يترع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال له : - اقرأ ، قال : - ما أنا بقارئ ، قال : - فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، فقد أرسلني ، فقال لي : - اقرأ ، فقلت : - ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : - (اقرأ بسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم) ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، فقال : - زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع وقال لخديجة : - وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : - كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري

الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة ابن نوفل ابن أسد ابن عبد العزى ، ابن عم خديجة ، وكان امرؤ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : – يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له : – يا ابن أخي ماذا ترى ؟ ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خبر ما رأي ، فقال له ورقة : – هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جدعاً ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : – أو مخرجي هم !!! قال : – نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت فيه إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك ، نصرك مؤزراً ، ثم لم يلبث ورقة أن توفي ، وفطر الوحي .

قوله تعالى : – (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) يعني : – لتكن قراءتك باسم ربك ، بسم الله ، لا بسم غيره ، بسم الله وحده الذي خلق ، والخلق يقتضي الربوبية ، فالله سبحان وتعالى هو رب العالمين ، لأنه هو الذي خلقهم ، (خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ) والمقصود : – بني آدم لا الإنسان الأول الذي هو آدم نفسه .

وأما قوله تعالى : – (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ) فالمراد به : – الإنسان الأول أدم عليه السلام ، وقد جمع الله بين الاثنين ، وبين أصل كل منهما في قوله : – (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) والعلق : – دود أسود في الماء معروف ، كما في لسان العرب ، والمراد به في الآية : – الحيوانات المنوية .

وقوله تعالى : – (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ) فليس بعد كرم الله كرم ، وما النعم التي يتقلب فيها العباد ، إلا من فيض كرمه سبحانه ، ومن كرمه هذا الوحي الذي أوحاه إلى نبيه ، رحمة للعالمين ، وقد عرف السلف قدر هذه النعمة ، وبكوا حين فقدوها .

فعن أنس رضي الله عنه قال : – قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما : – بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها ، فلما أتيا إليها بكت ، فقالا لها : – ما يبكيك ؟ ، أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : – بلى ، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسوله الله صلى الله عليه وسلم ، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء ، فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها .

وقوله تعالى : – (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) إن الإنسان قد خرج من بطن أمه لا علم عنده ، ووهبه الله تعالى الحواس ، التي هي وسائل التعلم ، كما قال تعالى : – (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) وفي نزول هذه الآيات أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم دليل على أن الإسلام دين يقوم على العلم ، وينبذ الجهل ويعيبه ، كما ينبذ التقليد ويذمه ، ذلك أن العلم : – هو السبيل الوحيد إلى الإيمان ، فعلى المسلمين أن يهتموا بالعلم ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : – " من الله به خيراً يفقهه بالدين " .

وقوله تعالى : – (كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) . روى مسلم فيه صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : – قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ، فقيل : – نعم ، فقال : – واللات والعزى لأن رأيته يفعل ذلك لأطئن على رقبته ، أو لأعكرن وجهه في التراب ، فأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، زعم ليطأ على رقبته ، فما فجئهم منهم إلا وهو ينقص على عقبيه ، ويتقي بيده ، فقيل له : – مالك ، فقال : – إني بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : – لو دنى مني لأختطفه الملائكة عضوا عضواً " ، فأنزل الله عز وجل : – (كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) إلى آخر الآيات ، وهذا كما يقول العلماء ، من العام المخصوص ، لأنا رأينا أغنياء ، لا يظلمون ، رأينا أغنياء صالحين ، في أموالهم حق للسائل والمحروم ، ينفقون أموالهم بالليل والنهار ، سراً وعلانية ، ويطعمون الطعام على حبه ، مسكيناً ، ويتيماً وأسير ، إنما نطعمكم

لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شكور ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا ، يدل على تخصيص الآيات قوله تعالى : – (إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إلا الْمُصَلِّينَ) . وقوله تعالى : – (إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى) تنبيه لذلك الغافل ، وتذكير لذلك الضال ، إنا إلى ربك الرجعي ، فإلى أين أنت ذاهب ، وأنا إلى ربك المنتهى ، فلماذا هذا الظلم ، ولماذا هذا الطغيان ، فأفق من غفلتك ، وانتبه من رقدتك ، وابتغي فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنسى نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليه ، ولا تبغي الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب بالمفسدين ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت ، فيقول : – ربي لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق ، وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفسا ً إذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون .
وقوله سبحانه : – (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى) .

قال ابن كثير رحمه الله : – نزلت في أبي جل لعنه الله ، توعد النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عند البيت ، فوعده الله تعالى بالتي هي أحسن أولاً فقال : – (أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى) أي : – فما ظنك إن كان الذي تنهاه على الطريق المستقيم في فعله ، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى بقوله ، وأنت تتوعده على صلاته ، ولهذا قال : – (ألم يعلم بأن الله يرى) أي : – أما علم الناهي لهذا المهتدي ، أن الله يراه ويسمع كلامه ، وسيجازيه على فعله ، أتم الجزاء ، ثم قال تعالى متوعداً ومهدد : – (كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَه) أي : – لا إلم يرجع على ما فيه من العناد ، والشقاق (لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَة) أي : – سواداً يوم القيامة ، ثم قال تعالى : – (نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَة) يعني : – ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها ، خاطئة في فعالها (فَلْيَدْعُ نَادِيَه) أي : – قومه وعشيرته ، أي : – ليدعهم يستنصر بهم ، فسندعو نحن الزبانية ، وهم ملائكة العذاب ، حتى يعلم من يغلب ، أحزبنا أم حزبه .

ثم تختم السورة : – بتوجيه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الثبات على الطاعة ، (كَلاَّ لا تُطِعْهُ فيما ينهاك عنه ، وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) ، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .

أما سورة القدر

فهي سورة مكية ، تتحدث عن هذه الليلة ذات القدر ، التي خصت بتتريل الكتاب من الله العزيز العليم ، فهي حقاً ليلة القدر ، وقد اشتملت على عظيم رحمة الله بعباده ، فتترلت فيها الآيات الأولى من القرآن الذي هو رحمة للمؤمنين ، وجعلها الله لهم خيراً من ألف شهر ، فمن فعل فيها خير من ألف شهر ، ولا يحرم خيرها إلا محروم .
بسم الله الرحمن الرحيم (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) .
يخبر تعالى أنه أنزل القرآن الكريم في ليلة القدر ، وهي الليلة التي قال الله فيها : – (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَة مُبَارَكَة) وليست ليلة النصف من شعبان كما زعم البعض ، وإنما هي في رمضان ، كما قال تعالى : – (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذي أُنْزِلَ فيه الْقُرْآنُ) وليست ليلة من ليالي العام كما ظن البعض ، ثم عظم الله شأن هذه الليلة فقال : – (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرِ) وهي تقريباً بضع وثمانون عام ، فمن وفق لفعل الخير فيها ، كان له ثواب ألف شهر ، بل خير من ذلك ، وقوله تعالى : – (تَنَزَّلُ الْمَلَائكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ) أي : – يكثر تترل الملائكة مع كبيرهم جبريل عليه السلام في هذه الليلة لبركتها ، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : – " إن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من حصى الأرض " .

(سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) . قال مجاهد : – هي سالمة ، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوء أو يعمل فيها أذى ، ولقد كـــان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحث على قيام هذه الليلة فيقول : – من قام ليلة القدر إيماناً ، واحتساب غفر له ما تقدم من ذنبه ، ولا نستطيع الجزم بأن ليلة القدر هي ليلة كذا او كذا ، بل نقول كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، التمسوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان في وتر ، فإني قد رأيتها فنسيتها ، ولحكمة نسيها صلى الله عليه وسلم ، حـــتى يجتهـــد المجتهـــدون ، ويتنـــافس المتنافسون ، لكنه صلى الله عليه وسلم ، وصفها بما يغلب على ظن الصالحين أنها هي ، فقال : – " ليلة القدر ليلة بلجه ، لا حارة ولا باردة ، ولا يرمى فيها بنجم ، ومن علامة يومها تطلع الشمس لا شعاع لها " .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ليلة القدر وقيامها ، أعواماً ، وأعوام .

أما سورة البينة

فهي سورة مدنية ، تقرر أن الله سبحانه ، لم يكن ليترك الخلق سدى ، بل لابد أن يرسل إليهم رسل ، ثم هم بعد ذلك منهم المؤمن ، ومنهم الكافر ، ولكل جزاءه .
(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّـــلاةَ وَيُؤْتُـــوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) .
(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـــالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) .
يقول تعالى : – (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ) يعني : – لم يكن الكافرون من اليهود والنصارى وغيرهم من مشرك العرب ، متروكين هكذا كالإنسان المنفك المطلق ، غير المقيد ، يعني لم يكونوا متـــروكين لإرادهتـــم ، ولذاهتم ، وشهواهتم ، حتى تأتيهم البينة ، أي : – حتى يبعث الله إليهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ، ويعلمهم ما عليهم ، ومالهم ، كما قال تعالى : – (أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) أي : – يترك هكذا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، وكمـــا قـــال تعـــالى : – (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ) يعني : – ألإن كنتم قوما مسرفين ، في الذنوب والمعاصي ، نتركوكم من غير أمر ولا نهي ، ولا نرسل إليكم رسولاً يبين لكم ما أنتم فيه من الضلال ، والحال : – أنه وما كنا معذبين حتى نبعث رسول ، فلا بد مـــن إرسال الرسول بالبينة ، حتى تقام الحجة عليكم ، فمن كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون .
وقوله تعالى : – (رَسُولٌ مِّنَ اللَّه) بدل من البينة يتلوا صحفاً مطهرة من الدنس ، ومن الكذب ، ومن الشرك ، والكفر ، والنفاق ، كما قال تعالى : – (كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ) وقال تعـــالى : – (فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ

) وقوله تعالى : - (فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) الكتاب : - يطلق على الموضوع ، كما يقال : - كتاب الطهارة ، وكتاب الصلاة ، وكتاب القيامة ، وكتاب القدر ، وهذه الصحف المطهرة ، وهي هذا القرآن فيها كتب قيمة أي موضوعات وحقائق قيمة .

وقوله سبحانه : - (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) لقد كان أهل الكتاب متفقين ، على أن الله سبحانه يبعثن في آخر الزمان نبياً يختم به الأنبياء ، يؤمنون به ويقاتلون معه أعدائهم ، فينصرهم الله عليهم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ، ولهذا نهانا الله سبحانه عما وقعوا فيه ، فقال : - (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

وقوله سبحانه : - (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) يعني : - ما أمر أهل الكتاب في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم إلا بإخلاص الدين لله ، وافراده بالعبادة دون سواه ، فعلى هذا اتفق المرسلون ، كما قال الله تعالى : - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ) ، ولكن الذين كفروا من أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء) ، أي : - مائلين عن الشرك إلى التوحيد ، وعن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، (وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ) ، يعني : - أنهم أمروا بإخلاص العبادة كلها لله ، وبإقام الصلاة التي هي أشرف العبادات ، وأعظم حق لله عز وجل ، (وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ) وهيا أعظم حق للعباد الفقراء على الأغنياء ، (وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) أي : - الملة العادلة ، كما قال تعالى : - (إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) ، وقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : - (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) فهي قاعدة الدين على الإطلاق ، عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، والميل عن الشرك وأهله وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وذلك دين القيمة عقيدة خالصة في الضمير ، وعبادة لله ، تترجم عن هذه العقيدة ، وإنفاق للمال في سبيل الله : - وهو الزكاة ، فمن حقق هذه القواعد فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب ، وكما هو دين الله على الإطلاق .

ثم بين سبحانه وتعالى جزاء من كفر ، وجزاء من آمن ، فقال سبحانه : - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) (لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) أولئك هم شر البرية أي : - شر الخليقة التي خلقها الله وذرءها كما قال سبحانه : - (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون) أما الأبرار المتقون ، أما الذين آمنوا بالله عز وجل ورسله فجزائهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ، وما هم عنها بمخرجين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ورضاهم عنهم أعظم من النعيم الذي أوتوه كما قال تعالى : - (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) أي : - أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم ، كما في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : - " إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : - يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك ، والخير كله بيديك ، فيقول : - هل رضيتم ، فيقولون : - وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا ما لم تعطي أحداً من خلقكم ، فيقول : - ألا أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : - يا رب ، وأي شيء أفضل من ذلك ، فيقول : - أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا " .

وقوله تعالى : - (ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) يعني : - ذلك الجزاء المذكور إنما أعد لمن خشي ربه ، كما قال سبحانه : - (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) وقال سبحانه : - (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقال سبحانه : - (إنا الذين

يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة واجر كبير) وأولى الناس بهذا الوعد وأسعدهم به العلماء لأنهم هم أهل الخشية ، كما قال الله تعالى :
– (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

نسأل الله تعالى أن يرزقنا خشية في السر والعلانية .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبة أجمعين .

التفسير الإجمالي

المحاضرة الثامنة عشرة

تفسير سور الزلزلة والعاديات والقارعة والتكاثر والعصر والهمزة والفيل

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آلـه وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير هذه السور الزلزلة ، والعاديات ، والقارعة ، والتكاثر ، والعصر ، والهمزة ، والفيل ، فنقول وبالله تعالى التوفيق : –

سورة الزلزة ، والعاديات ، والقارعة ، والتكاثر ، والعصر ، والهمزة ، والفيل .

سورة الزلزلة

(إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْـدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

سورة الزلزلة سورة مكية ، واسمها يدل على موضوعها ، فهي هزة عنيفة للقلوب الغافلة ، هزة يشترك فيها الموضـوع والمشـهد ، وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ، فما يكيدون يفيقون حتى يواجههم الحساب ، والوزن ، والجزاء .

(إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ) وذلك يوم ينفخ في الصور ، فيبعثر ما في القبور ، (وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا) كما قـال تعـالى : – (وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) وكأن الأموات كانوا ثقلاً عليها ، فما أن أذن لها في إخراجهم حتى ألقت ما فيها وتخلت عنهم .

(وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا) أي : – ما الذي أصابها ، وما الذي جعلها تهتز وتضطرب ، بعدما كانت مستقرة ، ساكنة ثابتة ، لقد عرف الإنسان في الدنيا الزلازل والبراكين ، لكنه الآن يرى زلزلة دونها كل ما رأى من الزلازل ، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُـمْ إِنَّ زَلْزَلَـةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُـكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّه شَدِيدٌ) .

(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) أي : – تحدث بما عمل العاملون على ظهرها ، وذلك أن الأرض من جملة الشهود التي تشهد على الإنسان يوم القيامة .

وقوله تعالى : – (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا) يعني : – إنما أخرجت الأرض أثقالها ، وحدثت أخبارها ، بسبب أن الله أذن لها أي أمرهـا فأذنت لربها وحقت ، أي سمعت و أطاعت ، وحق لها أن تسمع وتطيع . (يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا) أي : – جماعات متفرقين مختلفين . (لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ) أي : – لتعرض عليهم أعمالهم ، كما قال تعالى : – (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلاَّ تَـزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى) فمن يعمل مثقال ذرة خير يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجر عظيما ، ونضع الموازين القسـط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ، ولذا كان من وصايا لقمان لابنه وهـو

يعظه (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) فلا تحقرن من المعروف شيئا ، فعسى أن ثقل به موازينك ، ولا تحتقرن من المنكر شيئا ، فعسى أن تخف به موازينك .

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى

واصنع كماش فوق أرض الشوق يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

أما سورة العاديات

فهي سورة مكية .

استفتحت : – بالقسم بخيل المجاهدين في سبيل الله على أن الإنسان كفور لنعمة الله ، شديد الحب بالمال الذي لا ينفعه إذا بعثر ما في القبور ، كما قال تعالى : – (يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) .

(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) هذه كلها خيل الخير ، خيل المجاهدين في سبيل الله ، يقسم الله تعالى بها ، تكريما لها ، وهي عدة الجهاد التي عرفها العرب ، وعليها كانوا يقاتلون ، والعاديات ، الخيل حين تعدو أي تجري ، والضبح ، هو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو .

(فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا) يعني : – احتكاك بالصخر فتقدح من النار .

(فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا) ، يعني : – الإغارة وقت الصبح ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ، كان إذا غزا قوماً بات قريباً منهم ، فإذا أصبح استمع الأذان ، فإن سمع أذاناً ، وإلا أغار .

(فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا) ، يعني : – غباراً في مكان معترك الخيول ، فوسطن به جمعا ، أي : – أوسطن ذلك الم كان كلهن جمع ، وجواب القسم (إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) يجحد الفضل ويكفر النعمة يعد المصائب وينسى النعم . (وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ) يعني : – على أنه شهيد على نفسه بلسان حاله .

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) والخير : – هو المال ، كما قال تعالى : – (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ) ، يعني : – إن ترك مالاً كثير ، وقد صرح ربنا سبحانه بذلك فقال : – (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) حتى ألهاكم التكاثر عن ذكر الموت والآخرة ، أفلا يعلم الإنسان أنه إذا بعثر ما في القبور ، لا ينفع مال ولا بنون ، وإنما حصل ما في الصدور ، لا ما في الجيوب والبنوك ، ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مره وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : – " يتبع الميت ثلاثاً : – أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله ، ومله ، ويبقى عمله " .

(إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ) يجمع ما كان يعملون ، وسوف يجزيهم عليه أوفر الجزاء ولا يظلم ربك أحدا .

أما سورة القارعة

فهي سورة مكية ، والقارعة : – اسم من أسماء يوم القيامة ، كالحاقة ، والصاخة ، والغاشية ، واسمها يدل على موضوعها ، فهي تعرض مشهداً من مشاهد القيامة ، وتختم ببيان مصير الناس يومئذ ، فأما من ثقلت موازينه ، فهو في عيشة راضية ، و أما من خفت موازينه ، فأمه هاوية ، وما أدراك ما هي ، نار حامية .

(الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) القارعة : – من أسماء القيامة ، سميت كذلك : –لأنها تقرع آذان الناس ، وأصل القرع الدق بشدة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، إن هولها أكبر مما تتصور ، فإنه لم يقرع سمعك شيء مثل القارعة .

(يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) وذلك يوم يقوم الناس من قبورهم ، بعد النفخ في الصور ، يوم يدعوا الداعي إلى شيء نكر خشعاً أبصارهم ، يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، وبثت الجبال بثاً فكانت هباء منبثا ، وسيرت الجبال فكانت سرابا ، ثم تنسف نسف فلا يبقى لها عين ولا أثر ، كما قال تعالى : – (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا) هذا هو مشهد القيامة الذي تعرضه الآيات ، وأما نهاية الناس ، فيقول تعالى : – (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ) .

وقد كثر ذكر الميزان في القرآن : – وهو كيوم بعد الحساب ، لأن الحساب إنما : – هو تقرير للأعمال ، وأما الميزان : – فهو إظهار لقدرها وقيمتها .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يثقل موازيننا ، وأن يبيض وجوهنا ، وأن يدخلنا الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وأن يسكننا الفردوس الأعلى بفضله وكرمه ورحمته .

أما سورة التكاثر

فالتكاثر : – هو الانشغال بالدنيا وحطامها ، من مال ، وولد ، ومنصب ، وجاه ، وغير ذلك مما يتعلق بحطام الدنيا الفاني ، الانشغال به عن ذكر الله سبحانه وتعالى ، والله تبارك وتعالى ، يقول على سبيل الذم : – (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) أي : – شغلكم عن ذكر الله ، وألهاكم عن طاعته (حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) يعني : – أنكم تشاغلتم بالتكاثر عن ذكر الله ، فلم تفيقوا من غفلتكم ، ولم تنتبهوا من رقدتكم ، حتى نزل الموت بساحتكم ، فلم يرعكم إلا ظلمة القبر تلفكم ، والملائكة تسألكم ، من ربك ؟ ، وما دينك ؟ ، وما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ .

ثم توعد الله تعالى هؤلاء الذين انشغلوا بحطام الدنيا ، عن طاعة الله عز وجل ، فقال : – (كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) وكلا كلمة ردع وزجر ، والمعنى : – سوف تعلمون العاقبة الوخيمة لانشغالكم بالتكاثر عن ذكر الله ، وهي الخسران ، سوف تعلمون أنكم خسرتم خسراناً مبين ولذا حذر الله المؤمنين من تشاغلهم بالتكاثر فقال : – (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) وقوله تعالى : – (كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) لو تعلمون علم اليقين شرط جوابه محذوف وليس ما بعده جواب له ، وتقدير الكلام ، لو تعلمون علم اليقين ، أنكم إلى الله راجعون وبأعمالكم مجزيون ما ألهاكم التكاثر ولكن ظننتم أنكم لا ترجعون ، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداهم فأصبحتم من الخاسرين ، وقوله تعالى : – (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) تفسير للوعيد المتقدم في قوله : – (كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) توعدهم برؤية

النار التي إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا قال تعالى : – (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا) وقال تعالى : – (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) .
وقوله تعالى : – (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) يعني : – لتسألن عن شكر ما أنعم الله به عليكم ، من الصحة ، والمال ، والولد ، والأمن ، والرخاء ، وهدوء البال ، وطيب القلب ، ونحو ذلك من النعيم حتى .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم : – " عد من النعيم الماء البارد ، فقال إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم ، أن يقال له : – ألم نصح لك جسمكم ونرويك من الماء البارد ، ولما سئل نزلت الآية ، قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : – وأي نعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان التمر والماء ، فقال عليه الصلاة والسلام : – أما ذلك سيكون ، نسأل الله تعالى أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته ، وأن يتم علينا نعمته " .

أما سورة العصر

(وَالْعَصْرِ إِنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) .

أما سورة العصر ، فهي سورة مكية ، تضمنت وعيداً شديداً ، وذلك بأنها استفتحت بقسم من الله تعالى ، على أن الإنسان في خسران ، وأنه لا ينجو من هذا الخسران إلا من توفرت فيه أربع صفات وهي : –
١) الإيمان .
٢) والعمل الصالح .
٣) والتواصي بالحق .
٤) والتواصي بالصبر .

فمن توفرت فيه هذه الصفات فقد بلغ غاية الكمال ، لأن غاية الكمال ، هي أن يكمل الإنسان نفسه ، ثم يسعى في تكميل غيره .

وتكميل نفسه يكون بإصلاح قوتين : –
١) العلمية .
٢) والعملية .

وإصلاح القوة العلمية يكون بالإيمان ، وصلاح القوة العملية يكون بالعمل الصالح ، فمن فعل ذلك فقد كمل نفسه فعليه أن يسعى في تكميل غيره ، حتى يبلغ نهاية الكمال ، فيأمر الناس بالإيمان والعمل الصالح ويصبر على ذلك ويصبر على ما يلقاه من الأذى بسبب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد تضمنت السورة الكريمة هذا كله مع قصرها وقلة آياتها فهي على ذلك ، أعظم سورة في القرآن .

ولذا كان الإمام الشافعي رحمه الله يقول : - " لوما أنزل الله على الناس غير هذه السورة ، لكفتهم ، ولكن الناس في غفلة عن التفكير فيها " .

قوله تعالى : - (وَالْعَصْرِ) المراد بالعصر : - الزمن ، الذي هو زمن ربح المؤمن وخسارة الكافر ، فالمؤمن يتاجر في العصر تجارة رابحة مع الله ، كما قال تعالى : - (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ) .
أما الكافر : - فهو غافل عن ذلك ، منغمس في شهواته وملذاته ، لا يفيق منها إلا في ساحة الموت ، وهنالك يعرف قيمة الوقت ، فينادي (رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ) وهيهات هيهات أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير ، فذقوا فما للظالمين من نصير . قال تعالى : - (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) يعني : - لو أنكم كنت تعلمون لما آثرتم الفاني على الباقي ، ولما تصرفتم في أنفسكم هذا التصرف السيئ ولاستحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا فعلى العاقل أن يغتنم حياته قبل مماته ، و أن يغتنم فراغه قبل انشغاله ، وأن يترك اللهو واللعب ، وأن يعلم أن عمره رأس ماله في تجارته مع الله عز وجل ، فليكن حريصاً على وقته أكثر من حرصه على ماله ، وليكن أضن بوقته منه بماله ، فإن المال إذا فقد ربما رجع أو عوضت عنه خيراً منه ، أما الوقت إذا ضاع ، فليس منه عوض ، ولن يرجع إلى يوم القيامة .
(وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) والخسر والخسران واحد كالكفر ، والكفران ، ومعناه إن الإنسان كل إنسان في خسران مبين .

(إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) فلهم أجر غير ممنون ، فاستثنى الله سبحانه من الخسران من اتصف بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

والإيمان : - هو أول واجب على المكلف ، وليس له وسيلة سوى العلم ، فالعلم هو الوسيلة الموصلة إلى الإيمان ، وليس للعلم مصدر ، سوى الكتاب والسنة ، فعلى المسلمين أن يهتموا بطلب العلم ما وجدوا إلى ذلك سبيل ، فإن الانشغال بطلب العلم أفضل بالانشغال بنوافل العبادات ، وعلى من تعلم أن يعمل .

فإن العمل : - هو الصفة الثانية ، من الصفات المنجية من الخسران ، وإنما مدح العلم من أجل العمل ، وإنما العلم شجره ، والعمل ثمرة ، فمن تعلم ، ولم يعمل فإن علمه إن لم يضره لم ينفعه ، وضرره ثابت ، فقد قال عليه الصلاة والسلام ، يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتترلق أقدام بطنه ، فيدور حولها كما يدور الحمار في الرحى ، فيأتيه الناس فيقولون يا فلان مالك ، ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فيقول بلى ، كنت أمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر ، وآتيه ، فاعملوا صالحاً يا أهل الإيمان فإن النجاة متوقفة على الإيمان والعمل الصالح ، وإن وفقتم لذلك فعليكم بالتواصي بالحق ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، وكل من التعلم والعمل ، والتعليم ، شاق ، يحتاج إلى صبر ومصابرة ، ولذا كانت الصفة الرابعة من الصفات المنجيات من الخسران ، التواصي بالصبر ، فالصبر نصف الإيمان ، والصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ، ولذا كثر في القرآن الكريم الحث عليه ، والترغيب فيه ، كما كثرت في ذلك الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للعمل بما جاء في هذه السورة حتى ننجو من الخسران الذي هو متحقق لكل الناس ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

أما سورة الهمزة

فهي سورة مكية ، قد توعدت الذين يعيبون الناس ، والين يكترون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، وذكرت أن مـــأواهم جهنم وبئس المهاد .
(وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) اختلف العلماء في الهمز واللمز ، هل هما بمعنى واحد ، أم مختلفان ،
فقال بعضهم هما بمعنى واحد ، وقال بعضهم يختلفان .
فالهمز : – هو عيب الغير باللسان في غيابه .
واللمز : – هو عيب الغير باليد أو بالعين أو بالإشارة ، أو بالكلمة الخفية في حضوره .
وعلى كل حال فالمراد بالهمز واللمز : – عيب الناس وازدرائهم واحتقارهم

وقد استفتحت السورة : – بهذا الوعيد الشديد (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) .
قيل : – الويل كلمة تقال للزجر والردع .
وقيل : – ويل واد في جهنم ، يستغيث جنهم بالله من شدة حره .

فالهمز واللمز من الكبائر ، وهما من عمل المنافقين والكافرين ، قال تعالى : – (ومنهم من يلمزك في الصدقات) وقال تعـــالى : – (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ) وقال تعالى : – (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ) وقد نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن الهمز واللمز ، قال تعالى : – (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .
ثم وصف الله الهمزة اللمزة بأنهم : – (الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ) فكثرة المال تطغي ، والكثير من المال يرقوا بنفسهم فوق النـــاس ، فيراهم دونه ، فيزدريهم ، ويحتقرهم ، ويسخر منهم ، (الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ) يعني : – أنه مشغول أبداً بهذا المال ، فهو طـــول النهار يعده عداً ، فإذا كان الليل نام كالجيفة نسأل الله السلامة والعافية .
(يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) أي : – يظن الجاهل أن ماله يدفع عنه الموت وينجيه منه فيكون من الخالدين ، حتى لو ظن أنه يمـــوت ، اعتقد أن الآخرة خير له من الأولى ، كما صرح بذلك صاحب الجنتين في سورة الكهف : – (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَـــا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) قال تعالى كلا ليس الأمر كما يظن : – (

ما أغنى عنه ماله ، وما كسب) ، فالمال لا يدفع الموت عن أحد ، ولو كان المال يغني عن صاحبه شيئا لأغنى عن قارون ، الذي أوتي من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، ومع ذلك خسف الله به وبداره الأرض فما كان من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، ثم قال تعالى متعوداً الهمزة اللمزة : – (لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ) أي : – ليرمين في النار التي يحطم بعضها بعض ، (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ) سؤال تفخيم أمرها وتعظيم شأنها ، جوابه (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ) وإضافتها إلى الله لتفخيم أمرها وتعظيم شأنها .

وقوله تعالى : – (الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ) يعني : – أنها تأكل اللحوم حتى تتطلع على الأفئدة فتمسها ، ومع ذلك لا يموتون ، (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ) أي : – مغلقه على خلاف الجنة فإنها مفتحة الأبواب ، (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) أي : – أن على أبواب جهنم عمداً ممدة مغلقة بها فلا تفتح لهم .

نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، أن يجيرنا وسائر المسلمين من النار ومن عذاب النار .

أما سورة الفيل

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) .

أما سورة الفيل ، فهي سورة مكية ، تذكر أهل مكة بنعمة الله عليهم ، حين رد أصحاب الفيل بغيظهم لم ينالوا خير ، وكانوا قد جاءوا لهدم الكعبة فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول فواجب عليهم أن يشكروا الله على هذه النعمة ، وأن يعبدوه ، ويؤمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم ، كما أنها تذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، بهذه الحادثة ، حتى يصبر على أذى قومه ، ويعلم أن الله ناصره وجاعل العاقبة له .

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) أي : – ألم تعلم ؟ فالرؤية هنا ، رؤية البصيرة ، لا رؤية البصر ، إذ أن النبي صلى الله عليه وسلم في أرجح الأقوال ، ولد عام الفيل ، فلم يرى بعينه كيف فعل ربه بأصحاب الفيل ، وقوله تعالى : – (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ) يعني : – أنه تعالى خيب سعيهم ، فرجعوا يجرون ذيل الخيبة ، ولم يظفروا شيئا مما أرادوا .

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ) يعني : – جماعات جماعات ، بعضها في إثر بعض .

(أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ) أي : – بحجارة من طين متحجر ، لا تصيب أحداً إلا قتلته .

(فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) أي : – كورق الشجر الذي عصفت به الريح وأكلته الدواب ، ثم غاثته .

وقد تضمنت كتب السيرة قصة أصحاب الفيل بالتفصيل الطويل ، وفيما جاء في السورة الكريمة من الإشارة الموجزة ما يغني عن التطويل .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الإجمالي

المحاضرة التاسعة عشرة

تفسير سور قريش والماعون والكوثر والكافرون والنصر والمسد والإخلاص والمعوذتين

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آلـه وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير هذه السور : – قريش ، والماعون ، والكوثر ، والكافرون ، والنصـر ، والمسد ، والإخلاص ، والمعوذتين .

فنقول وبالله تعالى التوفيق : –

سورة قريش ، والماعون ، والكوثر ، والكافرون ، والنصر ، والمسد ، والإخلاص ، والمعوذتين .

سورة قريش

سورة مكية ، وهي تذكر كفار مكة بفضل الله عليهم ، الموجب عليهم أن يشركوه بعبادهم إياه وحده لا شريك له ، وكانت قريش ولا سيما بعد عام الفيل تغدو ، وتروح ، وتجوب البلاد شمالا وجنوباً ، آمنة مطمئنة ، لا يعترض قوافلها أحد يقول الناس ، هؤلاء أهل بلد الله كفاهم الله مؤنه العدو لمكانتهم ومكانة بيته ، فذكرهم الله بهذه النعمة فقال : – (لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، وأينما توجهوا فهم آمنون وغيرهم خائفون وهذه نعمة توجب الشكر حتى تدوم فإن النعم تزيد وتدوم بالشكر ، وتنقص حتى تضمحل وتذهب بالكفر ، كما قال تعالى : – (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) ولذا قال تعالى : – (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّـنْ خَـوْفٍ) والله سبحانه وتعالى ، كثيراً ما يذكر الناس بنعمته ، حين يأمرهم بعبادته من باب أن النفس تحب من أحسن إليها فالله يذكر الناس بإحسانه ، ثم يأمرهم بعبادته ، كما هو واضح من هذه السورة ، وكما في قول الله تعالى : – (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْـزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَـلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) وكما قال سبحانه : – (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) ، (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

ثم سورة الماعون

فهي سورة مدينة ، تضم أهل البخل والرياء ، الذين أساءوا فيما بينهم وبين الله عز وجل وأساءوا فيما بينهم وبين عباد الله ، وتحض على التخلي عن هذه الصفات الدميمة والتحلي بضدها من الجود والكرم والإخلاص لله سبحانه وتعالى .

قوله عز وجل : - (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ) أي : - بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة ، فلا يؤمن بثواب على طاعة ولا عقاب على معصية ، ولذلك فهو : - (يَدُعُّ الْيَتِيمَ) أي : - يدفعه دفعاً شديد ، ويزجره ويغلظ له القول لأنه لا يرجو ثواب ببره ، ولا يرجوا عقاب على دعه ، (وَلا يَحُضُّ) غيره من الأغنياء (عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) لأنه هو أصلاً لا يطعمهم .

(فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ) الذين هم يغفلون عن أوقات الصلاة ، فيصلون الصلاة بعد خروج وقتها ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى لا يذكرون الله فيها إلا قليلاً وهؤلاء هم المنافقون (الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ) أي : - يصلون من أجل أن يراهم المؤمنون فيظنوهم منهم ومعهم ، كما قال تعالى : - (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلاً) .

ومن شدة بخلهم أنهم (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) أي : - إذا سألوا على وجه العارية المردودة منعوا الشيء الذي لا يضرهم إعطاءه ولا ينفعهم إمساكه وذلك من شدة حرصهم ، وبخلهم فعلى المسلم الصادق أن يتخلى عن هذه الصفات الذميمة ، وأن يتحلى بضدها من البر والإحسان ، فيما بينه وبين الله عز وجل بإخلاص العبادة له ومراقبة ، والتقرب إليه ، وبالإحسان إلى خلق الله عز وجل ولا سيما اليتيم الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بالضعيف .

أما سورة الكوثر

فهي سورة مكية ، تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإخلاص العبادة لله مقابل ما أعطاه من الكوثر ، وتبشره بأن الله مخزي أعداءه ومبغضيه ، ومعذبهم عذاباً أليم .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : - بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم بين أظهرنا بالمسجد ، إذا أغفى إغفاءه ، ثم رفع رأسه متبسم ، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله قال : - نزلت علي آفناً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) ثم قال صلى الله عليه وسلم : - أتدون ما الكوثر ، قلنا الله ورسوله أعلم قال : - فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنية عدد نجوم السماء فيختلع العبد منهم فأقول ربي إنه من أمتي ، فيقول : - ما تدري ما أحدث بعدك ، ففسر النبي صلى الله عليه وسلم ، الكوثر بأنه نهر في الجنة ترد عليه أمته ، فتشرب منه شربة هنيئة مرية ، لا تظمأ بعدها أبد .

قال العلماء : - والكوثر في اللغة ، العطاء الكثير ، قيل لامرأة أعرابية ، قد رجع ابنها من سفر ، بما أب ولدك قالت بالكوثر ، تعنى عاد بخير كثير ، فقول الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم : - (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) أي : - أعطيناك في الدنيا خيراً كثير ، وسوف نعطيك في الآخرة أكثر ، كما قال تعالى : - (ولسوف يعطيك ربك فترضى) .

ولما كان هذا الوعد متحققاً ولا بد ، قال الله تعالى : – (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ) بلفظ الماضي (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) وما هذا النهر الكوثر إلا من هذا العطاء الواسع الكثير ، الذي أعطاه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وهذا العطاء يوجب الشكر ، والشكر لا يتحقق بكلمة الحمد لله والشكر لله فقط ، وإنما يتحقق بالعمل ، بطاعة الله عز وجل ، ولذا لما ذكر الله تعالى آل داود ببعض نعمه عليهم ، أمرهم بالشكر فقال : – (اعملوا آل داود شكراً) فالشكر الحقيقي يكون باللسان والقلب ، والأركان ، باللسان : – بأن يحدث بنعمة الله ، ويلهج بالثناء عليه وشكره ، وبالقلب : – بأن يعتقد الإنسان أن ما به من نعمة فمن الله وحده لا شريك له ، وبالأركان : – بالقيام بما يحبه الله وترك ما يبغضه ، وأن تستخدم نعمة الله في مرضاته ، ولهذا قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم هنا : – (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) فالفاء واقعة في جواب قوله : – (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) وتقدير الكلام (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) شكراً على ما أعطاك .

فأمره الله بعبادتين من أعظم العبادات وأجل القرب ، وهما : –

١) الصلاة .

٢) والنحر .

قال العلماء : – لقد كان المشركون يصلون للأصنام ويذبحون لها ، ويذكرون اسمها على الذبائح ، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه بمخالفتهم ، بأن يصلي لله ، وأن يذبح لله ، ويذكر اسم الله على ذبائحه كلها ، كما أمره الله تعالى أن يقول : – (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) .

وخصت الصلاة بالذكر لأنها أعظم العبادات البدنية ، وخص النحر بالذكر لأنه أعظم العبادات المالية ، ولقد استجاب صلى الله عليه وسلم لأمر ربه عز وجل وقام بذلك خير قيام .
أما الصلاة فكان صلى الله عليه وسلم ، يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه .

فقيل له : – لما تفعل هذا ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فقال صلى الله عليه وسلم : – أفلا أحب أن أكون عبداً شكور .

وأما النحر فكان صلى الله عليه وسلم جواداً كريماً ، وكان كثيراً ما يذبح باسم الله ، ويوزع اللحم في سبيل الله كما جاء عن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال صلى الله عليه وسلم : – ما بقي منها إلا كتفها ، قال : – بقي كلها غير كتفها ، ومعناه : – تصدقوا بها إلا كفتها فقال : – بقيت لنا في الآخرة إلا كتفها بل إنه صلى الله عليه وسلم ، أهدى في حجة الوادع مئة بدنه ، ذبح بيده ثلاث وستين منها ، وذبح علي رضي الله عنه الباقي .

وقوله تعالى : – (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) الشانئان : – هو البغض ، والشانئ : – هو المبغض قال تعالى : – (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا) يعني : – لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ،

فاله تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : – إن الذي يبغضك هو الأبتر أي : – المقطوع الذي لا ذكر ، وهو المنقطع عن كل خير ، وقد كانوا يقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم : – أن رجل أبتر ، وذلك حين مات ذكور أولاده ، فقالوا : – لا عليكم منه فما هو إلا رجل أبتر قد مات ذكوره ، وهو لاحق بهم ، فيبتر ذكر وتنقطع سيرته ، فقال الله تعالى : – (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) أما أنت فقد رفع الله ذكرك ، فلا يذكر إلا وذكرت معه ، في الأذان وفي الخطبة ، وفي تشهد الصلاة ، وفي المجالس ، بل من ذكرت عنده ولم يصلي عليك ، أبعده الله ورغم أنفه ، ومن كان كذلك فشانئه لا هو ، هو الأبتر المقطوع ، المقطوع العقب ، والمقطوع العمل ، فلا يبقى له ولد ، ولا يبقى له عمل ، بل ولده مقطوع وعمله مقطوع فلا شيء له يذكر به ، وهو مقطوع العمل الصالح فلا يوفق له أبداً ، وإن عمله لا يجد له حلاوة .

أما سورة الكافرون

فهي سورة البراءة من المشركين وأعمالهم ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقرأ بها مع قل هو الله أحد في ركعتي الفجر ، وركعتي المغرب ، وركعتي الطواف ، كما كان صلى الله عليه وسلم يقرأهما إذا أوى إلى فراشه لينام ، لقد بلغ من جهل المشركين ، وغباوتهم لما عجزوا عن ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم للدعوة ، وعن الدين والتوحيد ، مع استخدامهم جميع الأساليب من الترغيب والترهيب والحيلة ، بل من جهلهم أن دعوا إلى ما يسمى بلغة العصر أنصاف الحلول ، فقالوا : – يا محمد اعبد اللات معنا عاماً ، ونعبد الله معك عام ، فإن كنت على حق فقد كنا معك ، وإن كنا على حق فقد كنت معنا ، فنهى الله رسوله صلى الله عليه وسلم عن طاعتهم فقال : – (فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) وأمره هنا أن يصدع ببراءته منهم حتى ييأسوا منه فقال : – (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) .

قال بعض العلماء : – التكرار في السورة للتأكيد .

وقال بعضهم : – المراد (لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) في الحال ، (وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُد) الآن ، (وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ) في المستقبل ، (وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) في المستقبل .
(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) ، وهذه البراءة من المشركين وأعمالهم سنة أبينا إبراهيم عليه السلام ، وقد أمرنا الله بأن نقتدي به ونتبع سنته ، قال تعالى : – (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) فالتبري من الكافرين سنة أبينا إبراهيم والتوحيد ملته ، وقد قال تعالى : – (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) فلا بد من التبري من أعداء الله ، لا بد من التبري من الكفر وأهله ، والشرك ، وأهله ، فلا يجوز أن يقر مسلم باستحقاق غير الله بالعبادة مع الله ، قال تعالى : – (فاعلم أنه لا إلا الله) أي : – لا معبود بحق إلا الله ، وكل ما عبد من دون الله فقد عبد بالباطل ، قال تعالى : – (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) وهذه السورة ، كقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : – (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) وكقوله تعالى : – (

فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْــزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَــا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) .

أما سورة النصر

فهي سورة مدنية ، تحمل البشري لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالنصر والفتح ، وتوجهه إلى التسبيح بحمد الله والاســتغفار إذا جاء نصر الله والفتح ، كما أنها مع حملها البشرى ، قد نعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ، وكأنه قيل له ، كــان منتــهى مطلوبك في الدنيا هذا الذي وجدته وهو النصر والفتح والاستيلاء ، والله وعدك بقوله : - (وللآخرة خير لك مــن الاولى) فلمــا وجدت أقصى مرادك في الدنيا فانتقل إلى الآخرة لتفوز بتلك السعادات العالية ، وحتى يأتيك الموت سبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا .

قال العلماء : - لما جمع الله تعالى بين النصر والفتح ، فقال : - (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) أليس الفتح نصراً ، وأجابوا بأن النصر قد تحقق من غير فتح ، كما كان يوم بدر إذ خرج المؤمنون وخرج المشركون من مكة ، والتقى الجمعان ببدر ، فنصر الله رسوله والمؤمنين ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خير ، بل قتل منهم سبعون ، وأسر مثلهم فكان نصر من غير فتح ، لكن إذا جاء نصــر الله والفتح وذلك يوم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان الفتح وهو ظاهر وكان النصر لأن الله مكن لنبيه صلى الله عليه وسلم ، منهم فمن عليهم وعفا عنهم .
وقوله تعالى : - (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا) يعني : - بعد الفتح ، وذلك أن العرب من غير قريش كانوا يقولــون انظروا ما الله فاعل بمحمد وقريش ، فإن نصر الله قريش كما نصرها عام الفيل فمعناه : - أن ما عليه قريش خير مما يدعوا إليه محمد ، وإذ انتصر محمد على قريش فمعناه : - أن محمداً أهدى منهم سبيل ، فلما جاء نصر الله والفتح عام ثمانية من الهجرة ، جاءت وفود العرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبايعوه على الإسلام وسمي العام التاسع بعد عام الفتح ، بعام الوفود ، ودخل الناس في دين الله أفواج .
وقوله سبحانه : - (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) الفاء : - واقعة في جواب الشرط (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّــهِ وَالْفَــتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) على ما حباك من نعم (وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة ، يكثر من قول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي ، كان يقول ذلك في الركوع والســجود يأول القرآن كما قالت عائشة رضي الله عنها .

أما سورة المسد

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : - لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله صلى الله عليــه وسلم حتى صعد الصفا ، وهتف يا صباحاه ، فقالوا : - من هذا فاجتمعوا إليه فقال : - أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح

هذا الجمل ، أكنتم مصدقي ، قالوا : – ما جربنا عليك كذب ، فقال : – فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، قال أبو لهب : – تباً لك ، ما جمعتنا إلا لهذا .
ثم قام فنزلت : – (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) والتباب معناه : – الضلال والهلاك ، قال تعالى : – (وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إلا فِي تَبَاب) والتباب أيضا معناه : – الخسران ، قال تعالى عن الأمم التي أخذها بالعذاب : – (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) أي : – تخسير ، فمعنى قول الله تعالى : – (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) يعني : – ضل وهلك ، وخاب وخسر .
وقوله تعالى : – (وَتَبَّ) يعني : – وقد خاب وخسر .

فالجملة الأولى : – دعاء عليه .
والثانية : – تحقق بها الدعاء ، ووقعت الإجابة .

وأبو لهب هو : – عبد العزى ابن عبد المطلب ، أحد أعمام النبي صلى الله عليه وسلم ، وأشدهم أذية له ، وأكثرهم بغضاً له ولدعوته ، وقد أظهر كراهيته وبغضه للنبي صلى الله عليه وسلم ولدعوته من أول لحظة ، صدع فيها النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة كما في ذلك الحديث ، وما زال يحارب النبي صلى الله عليه وسلم والدعوة ، ويصد عنه وعنها ، حتى مات في غزوة بدر غماً ، وكان وجهه شديد الحمرة فكناه الله تعالى : – (بأبي لهب) ليناسب النار التي يصلاها حيث إنا أيضا ذات لهب .
وقوله تعالى : – (مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) يعني : – ولد وما كسب وما كسب يعني : – ولده ، والمال لا يغني عن صاحبه شيئا في الدنيا ولا في الآخرة ، أما في الدنيا فما كان أحد أكثر مال من قارون ، ومع ذلك ما أغنى عنه ماله شيئا ، قال تعالى : – (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ) وكما لم يغني المال عن صاحبه شيئا في الـــدنيا ، فلن يغني عنه في الآخرة شيئا كما قال تعالى : – (وما يغني عنه ماله إذا تردى) يعني : – في النار .
وقوله تعالى : – (سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ) أي : – سيدخل أبو لهب ناراً ذات لهب تغمره من جميع الجهات ولهبها عظيم ، كما قال تعالى : – (إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ) .
وستدخل معه امرأته أم جميل أروى بنت حرب ، أخت أبي سفيان ابن حرب ، وكانت أيضا من ألد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم والدعوة ، ومن أشد الناس بغضاً للنبي صلى الله عليه وسلم وللدعوة ، وكانت تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعين زوجها على حربه صلى الله عليه وسلم ، فتوعدها الله بالنار مع زوجها فقال : – (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ).

وفي تفسير (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) قولان : –
الأول : – أنها تكون مع زوجها أبي لهب في النار تحمل الحطب وتلقي عليه لتشتعل ناره ، فتكون عوناً للنار عليه كما كانت عوناً له على النبي صلى الله عليه وسلم .
والقول الثاني : – أن قوله تعالى : – (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) كناية عن مشيها بين الناس بالنميمة التي هي نقل كلام الناس بعضهم في بعض على وجه الإيقاع والإفساد بينهم ، فالنمام يشعل نار الحقد والعداوة بين الأحبة ، فعبر عنه بحامل الحطب ، وجزاءه أن يصلى ناراً حماية ، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يدخل الجنة نمام .

وقوله تعالى : – (الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) يعني : – أن في عنق امرأة أبي لهب حبلاً فهي : – مقيدة في جهنم تنطلق وتأتي بالحطب ثم تعود وتلقي على أبي لهب .

قال العلماء : – وهذه السورة ظاهرة في الدلالة على معجزة النبوة ، لأن الله تعالى أخبر أن أبا لهب وامرأته في النار ومعنى ذلك أنهما لن يؤمنا أبدا ، وقد كان نزول هذه السورة في أول أمر الدعوة ، وكانوا حريصين على إبطالها بأية حيلة ، ومع هذا لم يفكر أبي لهب ، ولا امرأته في إعلان الإيمان ولو نفاقاً ليبطلا ما قاله الله ، وبلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فثبت بهذا صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه كما قال ربه : – (وما ينطق عن الهوى إن هو وحي يوحى) .
أما سورة الإخلاص

فهي سورة التوحيد ، توحيد الأسماء والصفات .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بها مع سورة : –
١) الكافرون في ركعتي الطواف .
٢) وركعتي الفجر .
٣) وفي الأخريين من الوتر ، إذا أوتر بثلاث .
٤) كما كان يقرأها مع المعوذتين دبر الصلاة .
٥) وعند النوم ، كان يجمع كفيه فينفث فيهما ثم يقرأ بهذه السور الثلاث ، ويمسح وجهه وما استقبل من جسده .
٦) وكان إذا مرض فعل ذلك .
٧) وأمر بقراءتها ثلاث ففي الصباح والمساء .

ومما جاء في فضلها : – عن أنس رضي الله عنه قال : – كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها ثم يقرأ سورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلمه أصحابه فقال : – إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بأخرى ، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى فقال : – ما أنا بتاركها ، وإن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم تركتكم ، وكانوا يرون أنه من أفضلهم ، وكرهوا أن يؤمهم غيره ، فلما آتاهم صلى الله عليه وسلم ، أخبروه الخبر ، فقال : – يا فلان ، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ؟ ، وما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة ، فقال : – إني أحبها ، فقال صلى الله عليه وسلم : – " حبك إياها أدخلك الجنة " .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : – احشدوا فإنه سأقرأ عليكم ثلث القرآن فحشد من حشد ، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقرأ : – (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : – سأقرأ عليك ثلث القرآن فأخبروه صلى الله عليه وسلم ، فقال : – إنها تعدل ثلث القرآن ، إنها تعدل ثلث القرآن لأنها : – قد تضمنت ثلث التوحيد ، فهي كما أشرت في توحيد الأسماء والصفات .

والتوحيد ثلاثة أقسام : –

١) توحيد الربوبية .
٢) وتوحيد الألوهيه .
٣) وتوحيد الأسماء والصفات .

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) قد اشتملت على توحيد الأسماء والصفات فكانت ثلث القرآن .
وقوله تعالى : - (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أحد في ذاته فلا ثاني له ، وأحد في صفاته فلا شبيه ولا نظير له ، وأحد في أفعاله ، فلا شريك له ، ولا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .
وقوله سبحانه : - (اللَّهُ الصَّمَدُ) قالوا في تفسير الصمد : - الذي لا جوف له ، الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ، ومسائلهم ، الباقي بعد فناء خلقه ، السيد الذي كمل في سؤدده ، والشريف الذي كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وكلها ألفاظ صحيحة ، وكلها صفات ربنا الصمد سبحانه وتعالى .

وقوله عز وجل : - (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) يعني : - ما كان لله من ولد وما كان له من والد ، وإنما قدم نفي الولد على نفي الوالد ، والأصل العكس ، لأنه لم يدعي أحد البتة أن لله والد وإنما ادعى قوم أن لله ولد ، (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ) ومشركوا العرب الذين جعلوا الملائكة إناثا تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبير ، ولقد كثر في القرآن الكريم نفي الولد عن رب العالمين سبحانه ، قال عز وجل : - (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) .
وقوله سبحانه : - (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ليس له ند ولا نظير ، ولا شبيه ولا عديل ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا إفراده بالعبادة ، والإيمان بأسمائه وصفاته ، كما أخبر عن ذاته سبحانه وتعالى .

أما سورة الفلق

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) .

اختلف المفسرون في المراد بالفلق ، فقال بعضهم : - كل ما فلقه الله عن غيره ، كالليل عن الصبح ، والحب والنوى عن النبت ، والأرض عن النبات ، والأرحام عن الأولاد ، والجبال عن العيون ، والسحاب عن المطر .
قال ابن جرير : - إن الله تعالى أطلق ولم يقيد ، فتطلق كذلك كما أطلق .
فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يستعيذ (بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) أي : - من شر كل ذي شر .
(وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ) هذا تخصيص بعد العموم فلما أمره أن يستعيذ به من شر جميع ما خلق ، خص بالذكر هذه الثلاثة ، لعظم شرها ، فقال : - (وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ) يعني : -الليل إذا دخل بظلامه ، وفي الليل تنتشر شياطين الإنس والجن ، وتتحرك الهوام ، وتتحرك النفس الأمارة بالسوء فتحض صاحبه على الشر وتزينه له ، وتحدثه أنه لن يراه أحد في الليل .

(وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ) وهن السحرة رجالاً أو نساء ، يعقدون خيط ، وينفثون فيه ، والسحر حقيقة ، قد يحصل به الضرر بإذن الله . كما قال عز وجل : – " وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله " ، وهو من الكبائر التي أمر الله ورسوله باجتنابها ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : – " اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : – ما هن يا رسول الله فقال : – الشرك بالله بالشرك والسحر وذكر بقية السبعة " وقوله تعالى : – (وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) . الحسد هو : – تمنى زوال نعمة الغير ، وهو أيضا حقيقة ، فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : – " العين حق " ، ولذا أمر الله تعالى نبيه أن يستعيذ به من شر حاسدا إذا حسد .

وأما سورة الناس

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)

وإذا دققنا النظر وتأملنا في سورتي الفلق والناس ، وجدنا أن المستعاذ منه في سورة الفلق ، أربعة : –

١ ٢ ٣

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن

٤

شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

ولم يذكر للمستعاذ به إلا صفة واحدة ، صفة الربوبية (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) .

أما هنا في سورة الناس ، فالمستعاذ منه واحد وهو : – (الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ) .

ومع ذلك فقد ذكر للمستعاذ به وهو الله سبحانه ، ثلاث صفات : –

١ ٢ ٣

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ) .

وذلك لأن شر جميع ما خلق الله دون شر الوسواس ، لأن شر الخلق سوى الوسواس إنما يحلق البدن دون القلب ، فإذا تلف البدن وسلم القلب ، فاز الإنسان ونجا ، (يوم لا ينفع مال ، ولا بنون ، إلا من آتى الله بقلب سليم)

أما شر الوسواس فإنه : – يتلف القلب ويفسده ، وإذا فسد القلب فسد الجسد كله ، وخسر صاحبه ، الدنيا ، والآخرة .
(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ) فالله تعالى هو : – رب العالمين ، وهو مليكهم الذي يأمرهم وينهاهم ، وهو إلههم الذي يجيب أن يفردوه بالعبادة .

(مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ) . قال ابن عباس رضي الله عنهما : – الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا غفل عن ذكر وسوس ، وإذا ذكر الله خنس .

وقوله تعالى : – (الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ) . قال النبي صلى الله عليه وسلم : – " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينــه من الجن ، قالوا : – حتى أنت يا رسول الله قال : – حتى أنا ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير ن وكان النبي صلى الله عليه وسلم معتكفاً فزارته صفية ، فقام معها يودعها ، فمر عليه رجلان ، فلما رأياه أسرعا ، فقال صلى الله عليه وســلم : – علــى رسلكما إنها صفة ، فقالوا : – سبحان الله يا رسول الله فقال : – صلى الله عليه وسلم : – إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فخشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً " .

قوله تعالى : – (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) تفسير للوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس فالوسواس يكون من الجنة كما يكون من الناس ، قال الله تعالى : – (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَــوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) فمن الإنس شياطين ، كما أن من الجن شياطين ، فشياطين الإنس توسوس ، وشياطين الجــن توسوس ، والنفس أيضا توسوس ، كما قال تعالى : – (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُــهُ) والوسوســة مثــل : – الوشوشة وهي : – الإسرار بالكلام ومن استعاذ بالله أعاذه كما أعاذ يوسف عليه السلام حين راودته التي هو في بيتها عــن نفســه وغلقت الأبواب وقالت : – هيت لك ، قال : – معاذ الله ، قال : – ربي السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ، وإلا تصــرف عــني كيدهن أصبوا إليهم وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيديهن إنه هو السميع العليم .

السميع للاستعاذة العليم بنية المستعيذ فإذا علم منه الإخلاص والصدق وقوة الرغبة في اعاذة الله له أعاذه الله سبحانه .
أعوذ بالله من همزات الشياطين ، وأعوذ بك ربي أن يحضرون .

وبهذا معشر الطلاب نكون قد انتهينا من تفسير هذين الجزأين التاسع والعشرين والثلاثين ، وهما المعروفان باسم جزء تبارك ، وعم .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا وإذا كم بالقرآن الكريم وفي الدنيا ، وأن يشفعه فينا في الآخرة ، وأن يجعلنا من أهل القرآن العاملين به إنه ولي ذلك والقادر عليه .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .